# زرعين

**(رواية)**

**صافي صافي**

## جمال

في نهاية المسار، وبعد أن تأكدنا أننا نجونا، ابتعدت قدر الإمكان عن باقي الفريق. حاولت أن أخلو بنفسي وأنا أكمل المسار نحو الحافلة. لم أرد أن أتحدث مع أحد، لم أود أن أنطق حرفا. أنا بحاجة للتأمل فيما جرى، وما جرى ليس بسيطا. في النهاية جاءت الشرطة، لم تفعل شيئا عظيما، لكن الأمر عظيم. تطلعت يمنة ويسرة لأتأكد أن ليس هناك صحافة، ولا تصوير تلفزيوني، ليظهر الشرطة بالمسحة الإنسانية. لماذا أفكر هكذا؟ كل شيء محتمل، هم يعرفون كيف نفكر، ونحن نعرف أيضا كيف يفكرون، ربما. الحمد لله أني لم أجد شيئا من هذا، لكني غطيت رأسي بقبعة السترة التي ألبسها، وخلعت نظارتي، وكسوت وجهي بمزيد من التجهم، وأكملت سيري، كما أني لا أرى أحدا، وأعرف أنهم يروني جيّدا. أهملت وجودهم، علهم يهملون وجودي. هذا السلوك اعتدته، حينما لا يعجبني أمر ما، أهمله، أتعامى عنه، وها أنا أجد نفسي بهذا النهج. البديل أن أواجهه، ونحن لسنا مستعدين للمواجهة، ربما المواجهة السلبية، وأنا فعلت كذلك، أكره السلبية، لكني أضطر لها أحيانا، قد تكون سلبيتي مؤقتة، وقد تطول، لكني في هذه اللحظة ألجأ إليها، فلا حول لي ولا قوة.

اختلست النظر هنا، وهناك، وبالذات نحو العم الحاج إبراهيم، واسترقت النظر نحو جمال الذي اقترب مني بشكل مدهش. حاولت أن أبتعد، لكنه اقترب. حاولت تغيير المسار، فاقترب أكثر. خشيت أن يرانا الآخرون، وخشيت أن يرانا الحاج إبراهيم، فأنا لست مثل جمال، أستطيع تفهم خوفه قليلا، لكن هناك شيئا مُبيّتا لا أعرفه، وأنا لست جزءا منه. اقترب حتى التصق بي، وقال هامسا: ألا ترى أن الحاج إبراهيم يحاول أن يُحمّلني المسؤولية! تخيل! كل ما قمت به لمساعدتكم، سيذهب هباء. يريد أن يظهر صورتي البشعة، لطلبي النجدة من الشرطة، هل كان يمكن أن أفعل غير ما فعلت؟

التفت نحوه، دون أن أجيب. هل يود أن أنشغل به الآن؟ أم أنشغل بقدمي المتعبة؟ أم بأني لم أزر بيت صديقتي حنان في بيسان، في المدينة التي أمشي على ترابها الآن؟

أكمل: كنا وحدنا على رأس التلة، كنا هناك وحدنا، تركنا الحاج إبراهيم وباقي أعضاء الفريق، كنا سنموت، سنلقى مصرعنا من البرد الشديد، والأمطار المتوقعة. جاءنا هو واثنان، بعدما بُلغت الشرطة بأمرنا، هل أنصاع وقتها للحاج إبراهيم أم للشرطة؟ هل يود أن أجعل الأمر مزحة معهم؟ لا مزاح معهم، فالبلاغ جدي، ووضعنا الصعب كان جدّيا. هو لا يريد أن يفهمني، لا يريد أن يفهمنا، لا يريد أن يفهم سوء ما قام به. هو الذي يتحمل المسؤولية، ولست أنا. أنا جزء من الفريق، لكنني وجدت نفسي وحدي، منهك القوى، لم أستطع مساعدة نفسي، فكيف يمكن مساعدتكم. كنا هناك، ضاع الأمل بالنجاة، ولم أجد إلا الاتصال بالشرطة

بديلا. هو حاج، زار بيت الله، ويعرف الله ورسوله، ألا يعرف الحديث الشريف الذي يقول: إذا خرج ثلاثةٌ في سفر فليؤمروا أحدهم. كنت أميركم، فإن أخطأت في قراري، فلي أجر، وإن أصبت فلي أجران. أنا أستحق الأجر وليس العقاب. كما يبدو، نظراته نحوي، تبدي غضبا وأسفا، لا يكلمني، انقلبت أمور علاقتي معه مرة واحدة، أحس بذلك دون قدرة على إثباته. أنا أعرفه جيّدا، وأعرف ملامحه حين يغضب، إنه غاضب، غاضب مني أنا بالذات.

دققت النظر فيه قليلا، وما زلنا نسير، لم أجبه بكلمة، فأكمل: أنتم ثلاثة، وأنا رابعكم. صحيح أني لم أستشركم، لكني بصفتي المساند للحاج إبراهيم، والعارف بالمسارات إلى حد ما، والناطق الإعلامي في الحافلة وأحيانا خارجها، وجدت نفسي بأنني أنا الأمير. هل كنتم ستختارون غيري لو طرحت الموضوع عليكم؟

تطلعت نحوه مرة أخرى، وأنا أود أن ينتهي حديثه بأسرع وقت، وحاولت أن اقترب من الحاج إبراهيم، ليحسم الأمر. فأكمل: أنا لست مذنبا، ولست عميلا. تخيل مثلا لو وقع أحدنا وأصيب، أو مات، ألا نتصل حينها بالشرطة؟ ألا نتصل بسيارات الإسعاف لتقلنا؟ أتعرف أن الاتصال بهم واجب في تلك الحالة، ولو لم نفعل نحاسب عليه؟ أنا قمت بواجبي، وأشعر بالفخر بذلك. دعه يفعل ما يريد. إنه يظلمني.

حاول التوقف وإكمال الحديث، لكني ظللت ماشيا، فاقترب أكثر، وقال بلهجة منكسرة: ساعدني. أخبر الحاج إبراهيم بما هو طيب تجاهي، نحن كلنا في المركب نفسه، وأنت تتحمل المسؤولية كما أتحملها أنا، أليس كذلك؟ كلنا نتحمل

المسؤولية، كل الفريق: الذين وصلوا قبلنا، والذين مروا، ونحن أعلى التلة، ونحن الذين وقعنا في المأزق. لِمَ لا نوزع المسؤولية علينا بالتساوي؟ أو لتلقوا علي بالجزء الأكبر منها، لكن لا تلقوها كلها على أكتافي وحدي.

لم أقل شيئا، وانفصلنا.

مشيت هادئا، أو مفتعلا الهدوء. أنا غاضب من داخلي، ولا أصدق أننا نجونا. ما زلت أعيش المأزق فوق التلة، وما زالت أوامر جمال تطحن دماغي، وما زال سلوكه بالاتصال بالشرطة يربكني. أحاول مراجعة ما حدث، وأحاول أن أتبين ما كان ممكنا غير الذي فعله، وأن أكون جزءا من القرار. أحتمل ألم رجلي، وأتفكر فيما جرى. ألا يكفي أنني لم أزر بلدة صديقتي حنان، مدينة بيسان، ولم أصور بيتهم، وموقع صورة العائلة بالذات؟

قبل أقل من نصف ساعة، كان جمال يظهر نوعا من الفرح، حين وصلنا، حين خرجنا من المأزق، سمع الحاج إبراهيم يغني، وبدأ أبو نهاد بالرقص، فشاركهم الغناء والرقص. افتعلت الهدوء، والإنزواء، دعهم يغنون، أفهم لماذا يفعلون ذلك. هم يريدون أن يقولوا للشرطة بشكل غير مباشر، بأن كل شيء على أكمل وجه، حتى أن الحاج إبراهيم أخبرهم: يعطيكم العافية، أمورنا بخير، شكرا على تلبية الدعوة، والمساعدة. لكنهم لم يفعلوا، ظلوا ملاصقين لنا، يستفردون بأكثر من واحد، يحاولون سرقة الكلمات من أفواهنا، ولا أظن أنهم أفلحوا في ذلك.

كان جمال ممتقع الوجه، وحسب ألف حساب حين التقى الحاج إبراهيم، حتى أنه ناداه: عمي الحاج إبراهيم: هذا ما حصل، قرر ما تشاء، لكنك أنت عمي، وتمون على رقبتي. لم يجبه مباشرة، بل أشاح بوجهه.

ناداه الشرطي، المحقق، وسأله: هل أنت الذي اتصلت بنا؟

- نعم.
- ما الذي حدث؟
- تأخرنا عن الفريق.
- لماذا تأخرتم؟
- كان هذا الختيار قد شعر بالتعب من المشي في الأرض الزلقة، فسرنا على جانب الوادي، حتى وجدنا أنفسنا هناك.
- من الذي قرر ذلك؟

- لم يقرر أحد، وجدنا أنفسنا فوق التلة، ولم نستطع النزول.
- من هو قائد المسار؟
- ليس هناك قائد محدد. كلنا سواسية، جمهور وقادة.
- والحاج إبراهيم؟
- الحاج إبراهيم واحد منا.
- وأنت؟
- أنا ضعت، لم أجرب المسار من قبل.

يعمل جمال مساعدا إداريا في مدرسة تابعة لوزارة المعارف. هو اجتماعي بطبعه، بوجهه البشوش، يظهر تعاونا فوق العادة، مليح القوام، وإن كان يظهر عليه بقايا أعراض مرض مزمن، ادّعى أنه شفي منه، ولا يعرف أحد منا خبره، فالسر عنده. أعرف أنه تنقل بين أكثر من مشفى لتناول العلاج، وظل ممتنا للفريق الذي أنقذه نفسيا، حتى أنه كرمه لمشاركته الحثيثة.

حاول جمال الوصول بأبو نهاد إلى بر الأمان، كان قد طلب الحاج إبراهيم منه أن يعتني به، وهذا ما حاوله، ورغم ضعف بنية جمال، وشعوره بالإنهاك، إلا أنه جعل من جسده متكأ. في البداية كان يمسكه بيده لئلا ينزلق، وانزلقا قليلا هنا وهناك دون أذى، سارا ما يقرب من الكيلومتر بهذه الطريقة، يتوقفان للراحة قليلا هنا، ثم يكملان المسير، ربما هذه الاستراحات هي التي أخرتهما عن الفريق، حتى أن أبو نهاد كان يتناول سيجارة من علبتها، ويجعلها علامة استراحة، ينفث دخانها في الهواء الرطب المحيط، والشمس بدأت بالمغيب. بدت المسافة المتبقية قريبة، لذلك لم يستعجلا كثيرا، وكان يحلو لأبو نهاد أن يتعرف على بعض النباتات التي لم يرها منذ عقود.

في المسافة المتبقية، كان جمال تقريبا يحمل أبو نهاد، أو يجر جسده، حتى أنه عاد هو أيضا بحاجة للراحة. أبو نهاد طويل القامة، أبيض البشرة، قريب إلى الشقار، حليق الذقن، حسن الهندام، ومع أنه يرتدي ملابس الرياضة، لكنها كانت

تخونه، فتنزلق على حوضه النحيل. لم يشعر بالخجل تماما، ينزوي قليلا ويبول أمامنا كأنه أمر عادي.

وقف جمال قليلا، وطلب من أبو نهاد أن يبقى مكانه ليستطلع المخرج، راح على مقربة من حافة التلة، فإذا بها منحدر عظيم، لو انزلق قليلا، لتدحرج حتى أسفلها مسافة مئة متر تقريبا، ووجد الأمر نفسه على يمين التلة. لم يكن الوادي يبعد أكثر من عشرين مترا عنا، لكن كيف نصله؟ رأينا عدة صخور على شكل طبقات، كل منها تشكل عقبة لاجتيازها، وبعضها قابل للسقوط، فهي قد انسلخت عن أمها، قال: أنا أتقدمكم، وأمسك بأبو نهاد، وأنت تمسك به من الطرف الآخر. فعلنا، ربما استغرقنا اجتياز الصخرة الأولى عشر دقائق، كان يمكن أن نجد أنفسنا في الهاوية، لكننا اجتزناها. وقفنا هناك، فإذا بالصخرة الثانية أشد خطورة علينا، أشعر أنها على وشك السقوط، وتأخذنا معها. أصر جمال أن نجتازها. سألته: وإن فعلنا؟ ماذا بعد؟

- ماذا ترى؟
- أرى أن الانحدار يزداد كلما نزلنا خطوة.

تأمل الوضع قليلا، انحنى بجسده ليحاول رؤية العقبات الأخرى، فإذا بها كثيرة، وقال: هل ترى كم نحن قريبون من الوادي؟

- نعم، قريب، لكنه صعب، ربما استطيع ذلك وحدي، ربما، لكن أن نحمل أبو نهاد!
- ما العمل؟

- لنصعد ثانية إلى أعلى التلة ونفكر.

استجاب، ووقف كل في مكانه، لا نفعل شيئا، حتى ابتعد جمال، وبدأ بالاتصال بالشرطة.

لحظات فإذا بالصخرة ترسم حفرة متجهة إلى طرف الوادي. لقد نجونا من موت محقق.

جمال يستعجلنا أن ننهي المسار، فنحن وحدنا قبل أن نصل لأعلى التلة. الشمس غابت، ولا تستطيع الكشافات البسيطة التي نحملها أن تنير لنا الطريق. "يا جماعة، يبدو أننا في خطر، ألا تسمعون أصوات الحيوانات بين التلال؟ دققوا السمع، فهذه أصوات بنات آوى تنادي بعضها، هذه لن تؤذينا، ربما تعوي لغزو مزرعة هناك وراء التلال أو أمامها، لكن دققوا مرة أخرى، إنها صوت ضباع، إنها تشبه القهقهة، يبدو أنها ترصدنا، ولن تأتينا منفردة، ستجتمع، وتهاجمنا. لن نستطيع مقاومتها كثيرا، فنحن منهكو القوى، وهي تحفظ هذه الطبيعة جيّدا. إنها مأواها، ونحن زائرون. هي تعرف ذلك، حين ترانا هنا. ستأكلنا الضباع بعد أن تنهي ما تبقى لنا من قوة. لن نستطيع مقاومتها. هي بكامل حيويتها، ونحن بأقلها. إذا جاءت، إما أن نستسلم لها، فتأكلنا، وإما أن نهرب باتجاه المنحدر، وتلاحقنا، وستجدنا جثثا هامدة، أو على وشك الموت. أنا أحب الحياة، وأنتم كذلك".

- وِلِمَ لا تهاجم بنات آوى، أو الأبقار في أعلى التلة، في المزرعة؟
- لا نعرف، فبنات آوى تستطيع الاختباء في جحورها، ولا تشكل وجبات دسمة لها.
- والأبقار؟
- لا بد أن يكون هناك حراسة عليها، وهم مسلحون، أو يواجهونها بأساليب أكثر تطورا.

- هل يقتلونها؟
- لا، فهم يعتبرونها ثروة بيئية، والضباع في بلادنا تكون منفردة، وليست قطيعا كما في بلاد أخرى.
- هل نحن مستهدفون؟
- ربما. لا نعرف.
- لو أتت ماذا نفعل؟

تدخل أبو ماهر، قائلا: لا تخافوها، حين ترانا مجتمعين لن تهاجمنا، تدور حولنا، لتنفرد بأحدنا إن أمكن.

- كيف سنواجهها، فنحن لا نحمل عصيا؟
- بالحجارة ربما.
- بالحجارة؟
- دعوها لي، فأنا خبير بمواجهتها.
- لكنك يا أبو ماهر خائر القوى.
- المهم ألا نخاف من شيء مثل هذه، يجب أن ننجو من التلة، وليس من الضباع التي نسمع صوتها، بل من غيرها.

لم يقتنع جمال بما قاله أبو ماهر، لكنه استمد بعض القوة التي تذوب سريعا حين يسمع أصواتها من جديد.

رآني جمال وراءه، كنت كما غيري قد سلكت الطريق الموازي للوادي، وكان أمامي أبو ماهر، فقال: لا تبتعدوا عنا، ربما نحتاج أن نكون معا. كما ترون الفريق يسير مجموعات صغيرة هنا وهناك. دعنا نشكل المجموعة، وأنا لا أستطيع وحدي مساعدة أبو نهاد.

قدرت له هذا الموقف، فكأنه كان يعتني بأبيه، يدله على الطريق، ويمسك بيده، أو بالاثنتين أحيانا، ويتحدث معه حول بلدته الأصلية عمواس، ويتحدث هو الآخر عن التصوير الذي يقوم به، والفائدة التي يجنيها المتابعون. جمال يفتخر بعدد المتابعين لمنشوراته، بذل جهدا كبيرا لاتقانها، وربما سيتقاضى أجرا مقابل هذا النشر المتواصل.

أنا أصدق جمال وأقدره، بتلبية دعوة الحاج إبراهيم بالاعتناء بأبو نهاد، فقد كلفني بذلك في مسارات سابقة، للإعتناء بآخرين، قال لي وقتها: خلي عينك عليه، فهو بحاجة للمساعدة. وبالفعل كنت "أخلي" عيني عليه، وأحيانا يدي. فالمسارات فيها بعض الصعوبات، وهي جميلة بوجود هذه العقبات، نحتاج مرات أن نصعد تله، أو صخرة، أن نقطع جدول ماء، أو نمشي على حافة منحدر خطر، أو ننزله، والنزول أصعب من الصعود. يصرّ كبار السن هؤلاء على مرافقتنا في المسار، هم يحققون ذاتهم، يشعرون بأنهم جزء من مجموعة، يحسون بالرفقة، ولا بأس إن فعلوا ذلك مرة في الأسبوع، وليكن يوم خميس، وهم يعتقدون بأن المشي في البراري صحي من الناحية النفسية والجسدية، بل يعتبره بعضهم يوما رياضيا،

فمعظمهم يأتون وهم يلبسون زي الرياضة، وبعضهم يلبسون البنطال القصير، ويحملون عصيا، علامة شبوبية، وعلامة النية لخوض صعوبات قد تأتي. هؤلاء الكبار، يتأخرون عن الركب معظم الوقت، قد يصل تأخرهم حوالي نصف ساعة، لذلك ينصح الحاج إبراهيم بعضهم أن يبقوا في الحافلة، وهو يحترم الذين قرروا خوض المسار الذي قد يصل عشرين كيلومترا، وفي هذه الحالة، يلتفت لأحدنا، ويقول: خلي عينك عليه.

الحاج إبراهيم لا يكل ولا يمل وهو يتغزل بالطبيعة، فرغم أنه زار العديد من البلدان، آسيوية وأوروبية، ورغم جمال طبيعتها وتنوعها، كان يستعجل الرجوع، والتجول في ربوع الوطن. هو نفسه الذي يكرر الجمل عينها، وتعكس ما في داخله من جمال: "ما أجملك يا بلادي"، "ما أحلى هذه الطبيعة"، "ما أجمل ما أهدانا الله في هذا الكون". وهو نفسه الذي ينادي أعضاء الفريق بالأبطال. تجده في آخر الصفوف أحيانا وفي مقدمتها أحيانا. إنه يتابع الفريق، له نظرة غير التي نمتلكها، نحن نستمتع بالطبيعة، وبالمشي، وهو يتابع الطبيعة والفريق. يقف في مقدمة الصف، ويطلب من كل منا أن يقول كلمة، وعادة تكون الجمل، ما يقوله هو: ما أجملك يا بلادي، ما أجملك يا حاج إبراهيم.

وقف الحاج إبراهيم مستخدما هاتفه، يلتقط ما طالته عيناه من طبيعة، ليخزنه، ويعرضه فيما بعد. وقف بين التلتين، في الوادي، واستعرض بكلماته البسيطة المحببة "جبال العالي ما بتنطال وما في أعلى من جبالي، بدها رجال تكون أبطال تتطال جبال العالي". استعرض بكاميرته الصخور المدببة، والعشب يحوطها، والماء المتسلل من تحتها، وهو يتغزل بحبيبته، ويتغزل فينا "يا الله يا أبطال، والله الشباب لا يقدرون على هذا المسار مثلكم"، "الله عليهم الأبطال"، "شو هالجمال يا بلادي"، فتسمع كلمات المديح "الله يحفظك يا عم، الله يديمك يا حاج إبراهيم".

صخور هنا وهناك، بألوان مختلفة، الجافة والرطبة، الرمادية والبنية، البيضاء والكالحة، والماء ينساب من فوق أحدها حتى أسفلها صانعا مسلكا يتسع رويدا رويدا. صنع الماء على مر الزمن لوحة فنان محترف، فيهتف "هذا ما خلق الله، فأروني ماذا خلق الذين من دونه". إنه جمال الطبيعة، إنه جمال الله، فإن الله جميل يحب الجمال، وكل ما حولنا جميل. أما أنا فأرى كيف تشكلت هذه الصخور مع تغيرات الطبيعة، تخيلتها كتلة واحدة من الصخور، ومع عوامل الطبيعة تفتتت، فمنها ما أصبح ترابا، لكنه لم يكن كثيرا، فربما جاءت به سيول المياه من أعلى التلال، لكني أرى مواقع الصخور المتدحرجة إلى قاع الوادي، أكاد أحدد أين كانت، وكيف انفصلت. لا يهم إن كانت تشكل عائقا للمسير أم لا، المهم إنها الطبيعة. فالمياه شكلت الوديان، وجعلت للماء مسارا، في أضعف نقطة منه، فالماء يختار أسهلها، يختار المنحدر، يختار الأقلها ارتفاعا، وينحت في الصخر قدر ما يمكن، ويكون التراب الأقرب إلى لون الصخور، وتكون الحصوات الصغيرة، والحجارة الأكبر حجما.

أرى الصخور التي على وشك الانفصال، أو ربما التي ستنفصل عن أمها بعد مئات السنين، وأرى الأعشاب المعلقة في منتصفها، فأتذكر الأغنية "كما ينبت العشب بين مفاصل صخرة، وجدنا غريبين يوما، وكانت سماء الربيع تؤلف نجما، وكنت أؤلف فقرة حب لعينيك غنيتها". كم هي العبارات التي ألفتها أيام الجامعة لأحادث حنان، وأتغزل بعينيها، وها هي بعد هذا العمر الذي مرّ تطلب مني زيارة بيت جدها في هذا الفصل من السنة. لم يكن الفصل ربيعا رغم

اقترابه، وأتساءل: هل نحن نشوّه الطبيعة أم أننا جزء منها؟ والحاج إبراهيم يكرر: من أجمل المسارات وأروعها التي رأتها عيناي منذ عشرين سنة. ألتفت إلى أعلى، فأجد المغر في منتصف التلة الصخرية. لماذا صنعها الله؟ من الذي يستخدمها؟ أتستخدمها الوحوش والضواري؟

رأى جمال الحاج إبراهيم، وهو يتجول بهاتفه في الطبيعة، فأخرج كاميرته الطائرة، وبدأ بتشغيلها لتدور حول التلال، وتراها من زوايا مختلفة، وترانا، ويرى ما خلق الله، وما صيّره لحياتنا. توقف فجأة عن تسيير طائرته، قائلا: يا جماعة، يا حاج إبراهيم: تعال انظر، إن في هذا الشق أفعى عظيمة، إنها تشبه ما سمعناه من حكايا، لها أكثر من رأس. انظروا إليها كم هي هادئة، وكم هي واثقة، تتطلع نحو الكاميرا، كما لو كانت على أهبة لالتقاط صورة. انظروا إلى أبنائها حولها، إنها مزرعة أفاع. تعيش في منتصف المنحدر، فلا يصلها أحد، ولا تصل إلى أحد. إنها في حالة سكون، ربما لأنها تعيش بياتا شتويا، وجئنا نحن لنزعجها. لا يخشى أحد منها، فهي أقل عدوانية في هذا الفصل، فنحن ما زلنا في الشتاء، ومن المبكر أن تهاجم أحدا، هي تحب معارك الصيف، لتنتصر فيها، أما في الشتاء! إنها لا تهاجم أحدا إلا إذا هاجمها، هي فقط تحافظ على موقعها وأبنائها، لم تهرب، لكنها ستكون مستعدة في أي وقت. لو عرفت أننا جئنا لإيذائها، لهاجمتنا، لكنها تعرف أننا عابرو سبيل. أما أنا فأسلك هذا السبيل بمرافقة الفريق، علني أصل بيسان، بيسان القديمة، وأستطيع تصوير بيت الحاج خليل

الزرعيني، وأرسله لحنان، فهي لا ترى في فلسطين إلا بيسان بلدة جدها، وأبحث عن أثر الصورة المعلقة على مدخل البيت.

جمال ما زال مشغولا بتقرير حول مسار جبال فقوعة، وهو راض عن نفسه، بتسجيل فيلم قصير عن قرية زرعين، قرية أبو ماهر، لكنه نسي أن يسجل مقابلة معه، ونسي أن يسجل مراسم الدفن، فلم يكن على علم بها. هو مثلنا، فوجئ بأشياء مختلفة، وأما ادعاؤه بأنه الناطق الإعلامي باسم الفريق راح هباء، فراح يفكر في إنتاج أكثر من مقطع، واحد تاريخي عن زرعين، وثاني عن مسار اليوم في الجبال، ومقاطع أخرى ينشرها على صفحة المجموعة، منها عندما وصلنا لاستراحة ما بين السهول في أعلى التلة وبين الوادي.

فتح أحدهم مسجلته على أغاني عمر العبدلات "تلولحي يا دالية" وبدأ الفريق بالتصفيق على أنغامها، وبعضهم بالرقص في منتصف الحلبة. لم تكن هناك حلبة بالضبط، فليس هناك ساحة كبيرة تتسع للفريق، بل هي أشبه بحاكورة رطبة، والعشب لا يمنع الانزلاق، فتجمع الفريق في أعالي الصخر، وهم يلوحون بأيديهم، وبعصيهم ويرقصون. كانوا أشبه بالنمور وهي تقف فرحة على أطراف الصخور تراقب المراعي الجميلة، وما فيها، تتنفس بعمق، وتحرك عيونها في كل اتجاه، علها تشعر بالشبع البصري، ولا تشبع.

لم يهتم جمال كثيرا للتصوير، إذ أن التقاط دقائق من الفرح كان كافيا. أوقف الكاميرا، وانخرط بين الصفوف، في الحاكورة الرطبة، ولوح بعصا في الهواء، حاول أحيانا تقليد الرقص المصري، ثم تحوّل إلى الرقص الشامي. كان يوزع ابتسامات على الذين حوله، وحاول استدراج أبو نهاد للرقص. أبو نهاد يحب

الرقص، ويحفظ أغان قديمة، وإن كان يغير من لحنها. أمسك بيديه ورقص، رقص بفرح وبتناسق بين الألحان وحركات الجسد.

في الوقت الذي كنا نسمع أصوات طيور الحجل في السهل، وبين الصخور القائمة والمنحدرات الحادة، هذه الطيور الجميلة الشكل والصوت، شكلت جزءا من حياتنا البرية وما حول المدنية، ظهرت طيور غريبة الشكل، ليست نسورا ولا صقورا، إنها العوسق، الأكثر شبها بالصقر. كان طويل الجناحين، يطير فوقنا، ثم يحط على أعالي الصخور، وما بين منحدراتها. ربما كانت تحرس أعشاشها، أو صغارها.

ظنّ جمال في البداية أنها غربان، وجمال يؤمن بطيور التفاؤل التي تجلب الحظ، وطيور نذير الشؤم. وقف متأملا محاولا التدقيق فيها، وقال: الله يستر هذا اليوم. ارتبك، وبدأ بتلاوة بعض الآيات والدعوات، علها تبتعد، لكنها كانت تسبقنا أحيانا وتدور حولنا، ثم لا تلبث أن تعود إلى أعلى التلال. رافقتنا مسافة لا بأس بها، خاصة عندما بدأت بعض المجموعات بالمسير بعيدا عن الوادي، وهم يبحثون عن ما يمكن قطفه: زعتر بري، شومر، فطر.

لاحظ الحاج إبراهيم ارتباكه، فسأل غسّان الذي يعرف الطبيعة جيّدا، فكان جوابه بأنها صقور وحسب، فالواحد منها جناحاه طويلان مدببان، ذيله طويل، وأسفل الجناحين رملي اللون. إنها تتغذى على الحشرات والزواحف والقوارض. إنها تحافظ على التوازن الحيوي في البيئة الطبيعية.

ما لفت الانتباه قبل الانطلاق من أول المسار، البلبل الهندي، الذي بدأ يغزو البلاد منذ سنين، طائر جميل، بمنقار أصفر، يمتد صفاره حول عينيه، ولون

ريشه المختلط بين الرمادي والكحلي والأسود. جاء هذا الطائر من جنوب شرق آسيا والهند، وهو يستطيع التكيف مع بيئات مختلفة، منها بلادنا. رغم شكله الجميل، وصوته الجميل أيضا، إلا أنه يشكل خطرا على البيئة، جاء غريبا، واستوطن، فهو من القوارض الطائرة، وعدواني، يهاجم أعشاش الطيور الأصيلة، مثل الدوري واليمام، ويقتل فراخها، ويحتل أعشاشها. هو تهديد حقيقي للتنوع الحيوي منذ آلاف السنين. ويشكل خطرا على الإنسان أيضا، فهو ينقل الطفيليات والجراثيم، ويقتات على كل شيء، ويوقع خسائر اقتصادية كبيرة، ولا تشكل لحومه مادة للأكل الآدمي.

حاول جمال أن يصوره من أكثر من زاوية، بآلة التصوير الطائرة، لكنه كان يطير فوقها، أو يبتعد عن مدى نظرها، فقال: إنه مخادع، وذكي، وسيبقى على الأغلب إلى أن يشاء الله.

جمال يشعر بنفسه، بأنه أحد أهم المساعدين للعم الحاج إبراهيم، فيقوم بالتحضير للمسار وما حوله من مناطق، وما يقوم به هو نتيجة بحثه في الإنترنت، خاصة الموسوعة العنكبوتية "ويكيبيديا"، وهو نفسه، لا يغير من طريقة حديثه، بل يقرر أن يقرأ كل ما هو مكتوب أمامه، وأحيانا تطول محاضرته، حتى أنه يقطعها وقت الاستراحات، ليستأنفها بعدها. هذه الحالة تجلب بعض الملل للفريق، فلم يعد لديهم الاستعداد لسماع كل هذا الحديث وقتا طويلا، ولو كان يرتجل خطبته بناء على معرفته لكان أفضل. يأتي الملل للفريق، من خلال الأحاديث الجانبية حول المدن والقرى الفلسطينية المجاورة، أو الحديث عن المصالح الخاصة لأفراد الفريق.

هذا يربك جمال ويغضبه، فيروح يؤكد بأن ما يقوله مهم جدا، وأن على راكبي الحافلة أن يستمعوا جيّدا لفهم التاريخ، واستخلاص العبر، وأشد العبر التي اختلف عليها الفريق، هي الإجابة على سؤال: هل كان منقذو فلسطين في التاريخ القديم والمعاصر من قادة عرب أو غيرهم؟ هو ينحاز لغير العرب، باعتبارنا غير ذي فائدة، وربما يكون المنقذ تركيا أو باكستانيا أو فارسيا. هنا تبدأ الخلافات، والصيحات، وتأتي أصوات حاسمة، لا يمكن مناقشتها: عرب أو غير عرب، سيكون المنقذ مسلما.

جمال أخذ مكانته من خلال الحاج إبراهيم، الذي كرمه يوما بدرع الرجل المثابر على المسارات رغم مرضه. ومن جهة أخرى، يرى جمال، بأن الروح المعنوية

التي اكتسبها من خلال المسارات، أعطته دعما نفسيا وجسديا، فتغلب على المرض الذي شعر بأعراضه قبل الالتحاق بالمسارات، فكان للحاج إبراهيم فضل في ذلك.

كنا نمشي سوية، كنا معا، كتلة واحدة، ثم تحولنا إلى سرب مشاة مع الطريق، ابتدأ مسارنا من مزرعة المراوح، عشر مراوح عملاقة، بثلاث فراشات، تعتلي قمة أعلى الجبال، وتتجه جنوبا بموازاة النهر، نهر الأردن، الأولى هي الأكبر، هي الأم، قاعدتها أكبر من أن تضمها بيديك، وتسبح في الهواء حوالي عشرة أمتار، تجمع نسمات الريح، وتحولها إلى طاقة كهربائية.

قمة الجبل ليست حادّة، بل هي سهل منبسط، يتم زراعته بالحبوب والبقوليات، تطل على سهول مرج بن عامر من جهة، وعلى سهول الغور من الجهة الأخرى، ومنها بيسان. كنا في أعلى التلة، حيث بعض أشجار الدفلى، تحيط بحديقة جميلة، وبعض المساطب، فنرقب المنظر من كل جانب. الأعشاب تغطي التلة كلها، ولا يشوهها سوى ممرات العربات الزراعية، تتجه بموازاة النهر، فتجرح هذه المناظر الطبيعية. حتى المراوح هي تشويه للطبيعة. في أعلى المراوح، مجسات ثلاثية، على شكل شمعدان، لا أعرف استخداماتها. هل يمكن أن تكون هذه التلة المرتفعة تستخدم فقط لأغراض مزرعة الهواء؟ لا أظن. فهي تشرف على شرق الأردن مباشرة، تشرف على بلدتي دير أبي سعيد وكفر راكب، وضواحي أربد. لا أظن أن هذه المراوح العملاقة تنتج طاقة كافية إلا لأشياء بسيطة.

رغم عدم وجود مياه نثق فيها للوضوء، استخدم البعض قوارير المياه التي يحملونها، ومنهم من استخدم أنابيب المياه الزراعية، تبرع جمال بإعلان أذان العصر، وأقام الصلاة، وتفرق البعض بين أشجار الدفلى الكثيفة يقضي حاجته.

انزلقنا شرقا، لنستقل الحافلة مرة أخرى، ووقفنا قرب صخرة مخرمة عظيمة، تصنع لوحة فنية وهي تحتضن نباتات الزعمطوط، تذوقنا طعمه الحامض قليلا، واختلفنا حول مسمى نبتة قربها، ودون جدال حسمت أنها تفاح المجانين، المسمى الحديث للشجاع، فحين يستوي ثمره، ويتحول لونه إلى البرتقالي، يكون شهيا جدا، أمّا قبل ذلك فيسبب بعض الارتباكات العصبية، ولم يكن وقتها يحمل ثمرا بعد.

لم يدقق جمال بتفاصيل وقفتنا، وتفاصيل نقاشاتنا، فهو يشعر بأنه المكلف بجمعنا، والصعود إلى الحافلة، وتنفيذ خطة المسار كما رسمها الحاج إبراهيم.

## أبو ماهر

أبو ماهر، يدور حول الحافلة، وكأن فيها كنزا دفينا، يتفقد حقيبته بين فينة وأخرى، كلما توقفنا، وقبل الانطلاق. وبينما انخرط أعضاء الفريق في الأحاديث، والاطئمنان على الصحة، وتداول ما أنجزوه خلال أسبوع، وخطة مسار اليوم إلى قرية زرعين، وجبال فقوعة. لاحظت أنه يقترب من حقيبته، ويفتحها، يمد يده، ويلقي نظرة على شيء ما، ثم يبتعد قليلا. كرر ذلك، ولم أشأ أن أسأله أو أساعده، فأنا لا أعرفه سابقا، ولا يعرفني، ولا يعرف أحدا كما بدا لي. عرفنا لاحقا بأنه كان يحمل فيها رفات والده الذي توفي في اليونان، وأوصى أن يدفن في قبر جده في قرية زرعين.

اكتفى هذا الرجل، محمود، بلقبه "أبو ماهر"، الذي لم يصرح عن اسمه إلا مؤخرا، فهو من عائلة الشلبي. ظننته في البداية من قرى رام الله لتشابه أسماء العائلات كما في المزرعة الشرقية، أو ربما من قضاء طولكرم مثل عتيل وارتاح ووادي الحوارث، أو من قرى السيلة الحارثية وبروقين وغيرها، لكن الوقت القصير الصعب الذي قضيناه معا على رأس التلة عرّفني به أكثر، الوقت الذي لم نعرف فيه الخروج من هذا المأزق. ربما كان الأشد قلقا بيننا، لأنه لا يحمل الهوية

الفلسطينية ولا الإسرائيلية، هو مجرد زائر جاء من الأردن، يسكن مدينة اربد المقابلة تقريبا لبلدته، وله أقارب كثر في مخيم جنين.

لم أسمعه يتكلم، كان كتوما، وشبه منزوٍ عن الفريق، يمشي كما يمشون، ينخرط أحيانا في قلب الفريق، لكنه يكون على طرفه معظم الأحيان. حاولت الاقتراب منه، والتحدث إليه، لكن بقايا دموع في عينيه، تجف ثم تسيل مرة أخرى. قضى معظم وقته محدقا في الأفق، وفي السماء أحيانا أخرى، يسير بضع خطوات إلى الأمام، ثم ينتقل إلى نقطة أخرى، فيسكن فيها، يدلل سيجارته بين أصابعه، وينفث دخانها، يأتيه أحدهم، فيرد عليه السلام، فيبتعد، مركزا نظره في تجمعات الفريق. هو يراقب الفريق عن بعد، يبتعد، ويقترب. هو ليس معنا تماما، هو مع نفسه، وفي نفسه الكثير كما يبدو.

لم نعرف قصته شبه الكاملة إلا ونحن في زرعين، وبينما نحن نسلك الطريق الذي رسمه خبراء المسارات لديهم، الطريق المؤدي إلى مستوطنة "يزراعيل"، وهو الاسم الكنعاني، الذي يدل على مهنة الزراعة التي مارسها أهلها، الزراعة النباتية والزراعة الحيوانية، هذه المستوطنة التي أقيمت فيها ساحات التزلج الصيفي، وملاعب، ومركز سياحي وتجاري. اتجه أبو ماهر يسارا نحو المقبرة. سلكنا نحن الطريق اليمين، حيث متنزه صغير، فيه بعض المقاعد الخشبية، أقيم فوق موقع المدرسة، بين أشجار السرو الباسقة، ومنه نطل على عين زرعين، الجميلة البهية، المحاطة بأشجار الكينا والحور، على طرق سهول القرية، لا أعرف لماذا كانوا يسمونها بالميتة. في الطريق كانت هناك العديد من آبار المياه، معظمها

على شكل حبة إجاص، مغطاة بأسلاك شائكة، لمنع وقوع الزائرين، وأشجار صبار على الجانبين حتى طرف السهل الأخضر، ففي القرية مسار صنعوه من أجلهم، من أجل التجول في الطبيعة، وإن كانت تقتحم معالم بقايا القرية. هناك بقعة من الأرض المرصعة بالفسيفاء، التي ربما كانت ساحة بيت لمختار، وشجرة بلوط عظيمة، تجاورها شجرة جميز، تحت الطريق مباشرة، ويستطيع الواحد أن يخلو تحتها، دون أن يراه أحد، لكن الحذر من أفواه آبار لم تغطها الأسلاك الشائكة، أما في الجهة العليا فهناك شجرة رمان ما زالت صامدة، وأشجار تين متفرقة دون تشذيب منذ رحل أهلها. في يسار الشارع شجرة بلوط بأوراقها المتعرجة شبه البيضاوية، تحيط بها أشجار الصبار، تحضنها، وتمنع الناس من الوصول إليها، ومنها اتجهنا إلى حديقة جميلة، مغطاة بالعشب، معظمه نبات الصفير، ذي الأزهار الصفراء، والشجيرات خاصة الخرفيش، لكنه ما زال طريا، فنحن في شهر شباط، وبقايا أمطار لم تجف بعد، يحيط بها الصبار من جهات ثلاثة، ربما كان بيدرا، أو ساحة لتجمع أهالي القرية. جُلت في كل أطرافها علني أجد معنى لهذه الهندسة الطبيعية، فنودي علينا أن نصعد إلى القرية، إلى بقاياها. هي أشبه بقصور، من الحجارة والطين، والأعشاب الطويلة تغطي أرضيتها، وأشجار حرجية تعلو التلة وما حولها. حاولنا أن نتبين هذا المبنى العظيم الذي أمامنا، المشرف على القرى المجاورة منها النورس والمزار وقميا وشطة، ونرى من هناك غور الأردن وبعض قراها. هذا ليس قصرا، بل قلعة من

عدة طبقات، لم يبق منها سوى الطابق تحت الأرضي، وحجارة واجهة الطابق الأول.

ما زلت غير قادر على فهم الإبقاء على بقايا القرى المدمرة. كان باستطاعتهم إزالتها كما فعلوا في الكثير من القرى، هل نسوها؟ لا أعتقد. لماذا جعلوها مزارا لأهاليها الأصليين؟ يقفون بجانبها، ويتصورون، ويحددون جغرافيتها من خلالها، ويبكون، ويضحكون، ويرقصون، ويغنون للعودة إليها. لماذا أبقوا عليها؟ ليس عندي إجابة محددة، هل هي بقايا آثار يبحثون فيها لاحقا؟ لا أظن، فهناك قرى جرى جرف الآثار الرومانية فيها. ربما جعلوها شاهدا، لكل زائر، لكي يعرف مصيره الماضي واللاحق، ربما. الشيء الواضح لي هو أسباب الوقوف على الأطلال في قصائد العصر الجاهلي، أطلال الأحباب، الحب العذري في أغلبه، يذهبون هناك، ويلقون القصائد، ويبثون ما في داخلهم من مشاعر، وها نحن نفعل مثلهم، لكني أخشى أن نرضى بهذه الوقفات، لنظل نبكي، ونجتر الذكريات التي لم نعشها نحن. هل ودوا أن نظل نبكي ونحزن؟ هل يزيد حزننا لو جرفوها؟ ربما أرادوا أن نتمثل في هذه البقايا، فنحن بالنسبة لهم مجرد بقايا. لا أعرف.

وجدت في معظم القرى التي زرتها ابقاءهم على المقابر، رغم أنهم أزالوا بعض الشواهد، وأسماء الموتى، فهل لذلك معنى؟ هل هي مسألة تتعلق بالمعتقدات، أم ودوا تذكير الذي يزورون قراهم بالموت؟ وفي أحيان كثيرة سمحوا لأهالينا في أراضي الداخل، بتنظيفها، وترتيبها. من جهة أخرى أزالوا مقابر في مناطق أخرى، ومدوا الطرق والجسور فوقها، أو طلبوا نقل الرفات إلى مناطق أخرى.

في قرى أخرى وجدت بعض المقامات، وإن هدمت أجزاء منها، أو تم تحويلها لأغراض أخرى خاصة إذا كانت في مناطق سكنية. ما قصدهم من وراء ذلك؟ قليلة هي القرى التي أبقوا على جدران بيوتها، منها قرية زرعين. صحيح أن ما أبقوا عليه قليل، لكنها علامات للقرية، ومن هذا الموقع يستطيع أهاليها، تحديد أماكن بيوتهم، وحاراتهم، وبيادرهم. أنا لا أعلم حقا.

أطلنا البقاء هناك طويلا، ونحن نحاول قراءة الماضي ممّا تبقى، طلب مني جمال أن أحاول ذلك، فهو مهتم بتصوير رحلاتنا، وعرضها على الجمهور العام، اشترى من أجل ذلك كاميرا طائرة، تجول في المكان، حيث لا يستطيع الوصول، وتستطيع أن ترانا من فوق، ومن كل اتجاه. سألني، بما يشبه المقابلة المتلفزة: ماذا ترى؟

ما الذي يريد أن أقوله؟

ماذا أرى؟ أأرى ما تبقى من القرية، أم ما قبلها وأثناءها وبعدها؟ وقفت صامتا، أتأمل المشهد، وبجدية زائدة أرى القرية بساكنيها الذين كانوا حوالي الألفين، بأزقتها، وحواريها، حيث يشرفون من هنا على مزارعهم، ويطلون من هنا، من هذه النوافذ على شكل أقواس، وأشكال رباعية على نهر الأردن، وعلى عين زرعين التي ما زالت تبدو عظيمة. أرى أهلها، وهم ينقلون ثمار مزروعاتهم، ويفرغونها هنا، في البيدر، أرى رعاة الأغنام حين يعودون مساء، وأتخيل زرائبها. أرى كبار السن، وهم يجلسون أمام بيوتهم، يحصون غلتهم لهذا العام، ليقيموا أعراس أبنائهم صيفا، وليبنوا مزيدا من البيوت لتلبي حاجاتهم. أرى الأهل وهم يجتمعون في القلعة، في القصر، في العلية، وهم يتشاورون في أمور القرية، وهم يقيمون الحفلات على أطرافها. أتخيل أن هذه العلية كانت ترتفع لأربعة طوابق، ومن فوقها أرى كل العالم أمامي وخلفي وعلى جانبيّ، أعتقد أنها مكان

للمناسبات، ولاستقبال ضيوف من خارجها. أرى الأطفال يتكتلون في أزقة القرية ويلعبون. وأرى شبابا يختلسون نظرات نحو صبايا القرية، لعلهم يرسمون خريطة أسرهم القادمة، أسمع صوت يسرى البرمكية وهي تغني، وتدق على الدف في الأعراس والموالد. أرى تواصل أهالي القرية مع قرى الأردن، في التبادل الزراعي والتجاري. إني أرى القرية بكامل حيويتها وطاقتها، وأراني جزءا منها. أرى العائدين من الحقول، من كل اتجاه، فرحين مبتهجين، أسمع ثغاء الماعز، وخوار الأبقار، وأرى أبناءها يلتصقون بها، علها تنال وجبتها، وأسمع نهيق الحمير تحمل بعضا من الغلة، ورجالا مثل الشباب يعتلون الخيل، ورائحة الطعام تنتشر بين أزقة القرية، من طوابينها، وقدورها، في انتظار من يأكلها. أرى الحياة، كما لم يكن قبلها، ولن يكون بعدها.

- لم تجبني.
- ماذا أقول؟
- هل تعود كما كانت؟
- المهم أن تعود، وستعود. ليس بالضرورة كما كانت، يمكن أن تكون أجمل. بالتأكيد ستكون مختلفة.
- هل ترى كيف ستكون مختلفة؟
- لا، فنحن اختلفنا عن آبائنا وأجدادنا. ربما أكثر جمالا.
- لماذا ربما؟
- لأنني لا أعرف. ربما لأننا أكثر وعيا، وأكثر حبا للطبيعة.

توجهت بنطري شرقا، حيث كانت المدرسة، بين أشجار الصنوبر، فبعد قتل مختار مستوطنة قريبة، تسلل أحد الجنود ليلا، واعتلى المدرسة، وبدأ بإطلاق النار في كل اتجاه محاولا إثارة الذعر بين أهالي القرية. تجمع الناس، وهم يهتفون، وصعد شاب إلى سطوحها، وباغته، وقتله، والحاجّة زريفة تزغرد، والرجال "يشوبشون". قضوا الليل حتى الفجر حتى تخلصوا منه، ومنعوا إمدادات أخرى له. جاءت قوة بريطانية، وأخذت الجثة، وطلب ضابطهم من سكان القرية الرحيل، أن يخلوا القرية تماماً من أهلها. حين سأله المختار: أين نذهب؟ أجابه بأن معسكر جنين فارغ في انتظارهم، فالجيش الانجليزي هجره، وغرفه جاهزة.

هتف الحاج إبراهيم، أن نلتحق بالركب، لنجتمع على بسطة في أعلى التل، فنودي أن سنصلي صلاة الظهر حاضرا، وصلينا، دون أن نلتزم بركعات السنة، وترك الأمر لكل واحد حسب خياره، فنحن على سفر، وليس هناك متسع من الوقت.

صرنا على حافة المقبرة الشرقية، حيث موقع مقام الشيخ الحلبي، فصرخ الشيخ محمد: أقرأوا الفاتحة على أرواح أجدادنا، بقوا حيث تركناهم. ففعلنا: السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون. ثم صاح: تجنبوا المشي على القبور بل بينها. وفعلنا قدر استطاعتنا، فحدود القبور فاهية. ثم اقتربنا حيث كان يجلس أبو ماهر، بجانب قبر جده، وكان بعض التراب بجانب الشاهد الباهت حديثا، رطبا أكثر. كان أبو ماهر يشع نورا، ولون عينيه ما بين الفرح والحزن. فنادى الشيخ محمد، أن سنصلي صلاة الجنازة على ماهر محمود الشلبي، وهو ذكر، وكان لا بد من تذكيرنا بها: أربع تكبيرات، في الأولى الفاتحة، وفي الثانية الصلاة الإبراهيمية، وفي الثالثة دعاء للميت، وفي الرابعة دعاء لنا: اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، وأغفر لنا ولهم. حين أنهينا دعانا لقراءة الفاتحة على روح الفقيد، ودعانا لنؤمن بعده على روحه، وروح من فقدنا.

لم أفهم لماذا أشار الشيخ أنه ذكر، فهل الصلاة عليه تختلف عنها على الأنثى؟ لا طبعاً. وهل الدعاء يكون للجسد أم للروح؟ أعرف أنها للروح، والروح أنثى في الحالتين، وهل الدفن يكون مختلفاً؟ حسب علمي لا، فلماذا يفعلون؟ شكرت الله

أن الشيخ لم يلقن الميت، بالأسئلة حول إيمانه، ليثبته عند السؤال، وكأن الإجابات يجب أن تكون حفظا، وهل ملكة الحفظ تبقى بعد الموت؟

طُلب من أبو ماهر، أن يلقي كلمة، فقال: الحمد لله أنني حققت أمنية أبي، ليدفن بجانب جدي، كم أشعر بالحزن والفرح معا، وهل أفرح بالموت! إنه قدر الله، لكني دفعت ثمنا باهظا لآتي برفاته إلى حيث وُلد، استغرق هذا الأمر مني سنوات. أشكر عضو الفريق الذي تمكن من نقل رفاته في وعاء البلاستيك، من رام الله عبر حاجز قلنديا. تمكن من ذلك في مركبته، حيث لا تخضع للتفتيش الدقيق. قد تتساءلون، إن كان حرق الجثة حلالا أم حراما. بالطبع حرام، لكن والدي مات في أوروبا، ولا نستطيع نقل الجثة كما هي من هناك إلى هنا، وخُيرنا أن نعيش على ذكراه، أو أن نزيله، وهكذا كان أن حولنا الجثة إلى رماد. ذهبت هناك مباشرة، لنقلها. أمّا كيف مررنا بها عبر الجسر، فكان أن رطبنا الرفات بالماء، وحين سُئلنا عن ذلك، أجبت بأنه من طين البحر الميت، نعالج به بعض أمراضنا الجلدية.

أللهم ارحم أبي، وجدي، وأجدادي، وأقاربي، وجميع الذين في القبور في هذه البلاد، وفي غيرها، قولوا: آمين. فقلنا.

لم أشأ أن أسأله عن سلوكه، لو قرروا منعه من إدخال الوعاء، أو حاولوا إلقاءه في الحاوية. لو حدث هذا لما قابلناه اليوم، ربما.

وقف أبو ماهر على طرف المقبرة، ووقف بجانبه الشيخ محمد، وستة آخرون، مستقبلين للعزاء، بوجوه حزينة، وابتسامة.

كنا خمسين رجلا، فسلمنا عليهم معزين، وحضنّا أبو ماهر طويلا، طالبين من الله أن يعظم أجره، ورد علينا شاكرا سعينا.

طأطأنا رؤوسنا احتراما للموتى، متقبلين نهايتنا، وإن أطلنا في الحياة، وأسئلة كثيرة دارت بالهمهمة أحيانا، وبصوت عال مرات أخرى.

قال أحدهم: لأول مرة أشعر بعبثية الحياة. لماذا نعيش إذا كانت نهايتنا الموت؟ لماذا نسعى في مناكبها، ونحن نعرف مآلنا، وربما في علبة زجاجية أو بلاستيكية كما أبو محمود؟

أجاب أحدهم: إنها حكمة الله.

- لكننا ننسى ذلك، ولا نعرف هذه الحكمة.
- هو فرض علينا الحياة، وفرض علينا الموت، كل بطريقة مختلفة.
- لِمَ تمنع الدولة عودتنا إلى أراضي أجدادنا، حتى ونحن موتى؟
- إنها حكمتها، وهي زائلة.
- كيف عرفت؟
- علماء غربيون يقولون ذلك.
- ولِمَ خلقوها إذن؟
- هل أنت متعلم؟

- نعم.
- لِمَ تعلمت، وأنت تعرف، أنك ستموت؟
- من أجل أن أعيش بكرامة قبل أن أموت.
- وهكذا هي إسرائيل.
- لكنها لا تعيش بكرامة.
- هم يعتقدون غير ذلك.
- وهل كنا نعيش بكرامة؟
- ما دمت مقبلا على الحياة، وتعرف نهايتها، ستعيش بكرامة.
- هل أنت متأكد مما تقول؟
- لا، لكني أحاول أن أعيش بكرامة.
- وهل نعيش بكرامة، ونحن خارج وطننا؟
- ما دام لك هدف، وتعمل من أجل تحقيقه، فأنت تعيش بكرامة.
- هل أنت متأكد؟
- لا، لكنك لو كنت مكاني، ستجيب الأسئلة كما أفعل.

اقترب الحاج إبراهيم، من الشيخ محمد، وسأله: هل يجوز حرق جثة مسلم؟

قال: الديانات السماوية، ومنها الإسلام، تحرم ذلك، بل يجب أن يغسل، ويكفن، ويصلى عليه، ويدفن.

- لكنهم فعلوا ذلك حيث توفي. هذه هي جنازته الثالثة، الأولى في أوروبا، والثانية في الوعاء، والثالثة في قبر جده.
- صحيح. وربما جنازته الرابعة أو الخامسة، فأهله في الأردن صلوا عليه، وفي مخيم جنين صلوا عليه أيضا.
- هل ما فعلناه من صلاة عليه، حرام؟
- لا.
- حتى لو كان رمادا؟
- كلا، سنعود كلنا إلى التراب.
- ما موقفك من الحرق؟
- هناك موانع، لكن هناك إجازات، فالظرف يحتم ذلك، والضرورات تبيح المحظورات.
- لم أفهم.
- إذا كانت وصيته أن يدفن في قريته بجانب أبيه، وأنت اعتبرت الوصية مقدسة، فيمكنك أن تتحايل وتفعل مثلما فعل أبو ماهر.
- هل يطالنا إثم لمشاركتنا له في مراسيم الدفن؟

- لا، بل تثاب على ذلك، فالنية هي التي دفعتك.
- وهل النار نجسة؟
- لا، بل هي أطهر من الماء والتراب الذي نتوضأ به أو نتيمم.
- ماذا تقول يا شيخ؟
- النار طاهرة، لكننا لا نعبدها، فالماء طاهر ولا نعبده، والتراب طاهر ولا نعبده.
- نتوضأ بالماء، ونتيمم بالتراب، فهل يجور التطهر بالنار وبالهواء؟
- لا نستطيع تحمل حرارة النار، لكننا نطهر أدوات الطبخ بالنار، أليس كذلك؟
- وماذا عن الهواء؟ نتهوى؟
- لي صديق، لم يجد ماء، ولا ترابا طاهرا حسب اعتقاده، فتهوى قبل صلاته. يمكن التطهر على ساق شجرة، فهل نسمي ذلك تشجرا! لا. المهم نية التطهر.
- هل أنت متأكد بصحة ما فعله؟
- لا.

كان يمشي وحيدا معظم وقته، أو بعيدا عن كتلة الفريق الأساس، فوجدت نفسي أسير وراءه، ربما لأني شعرت بشعوره، وطالني إحساسه، وهو يدفن أباه في بلدته. كانت سيجارته لا تفارقه، يتطلع في السماء حينا، وفي الأفق حينا آخر، وفي لا شيء معظم الأحيان. لم يشارك الفريق حين رقصوا وغنوا، وكان على مسافة كلما ودوا الاستراحة لبعض الوقت. كان مربوع القامة، بشعره الأملس الشائب، وبعينيه الخضراوين. يبدو أن الزمن أكل عليه وشرب.

أبو ماهر نسي تاريخ ميلاده، وتم تقديره تقديرا، ربما قبل الهجرة بسنة، أو خلالها، أو ربما تم تغييره لتسنح له فرصة دخول المدرسة مبكرا. هو لا يذكر المعارك في قريته، لكنه سمع عنها من أبيه وأترابه. سكنوا مخيم جنين كما أهالي بلدته، فالضابط أصر على تكرار جملته: المخيم فارغ، وينتظركم. ظلوا هناك حتى حرب حزيران، فهاجروا إلى الأردن، وسكنوا مخيم أربد، والتحق بالمقاومة، وشارك في معركة الكرامة. شعر أبوه بالندم من الهجرة الثانية، فقرر السفر إلى اليونان، والعمل هناك، علّه يحصل على جنسيتها، ويعود على الأقل زائرا كلما رغب بذلك، لكنه ظل عاملا هناك في ثمانينيات القرن الماضي، دون الحصول على الجنسية، ودون أن يعود.

في زيارة له ولابنه بعد الحرب الثانية بسنوات، بتصريح كما كان معمولا، اصطحب ابنه، ووقف على معالم القرية، ووقف على قبر أبيه وبكى، وأوصى: تدفنونني هنا، في القبر، أو بجانبه. كانت مجرد عبارة قالها، ولم يعرف ابنه

جديّته في القول، لكن حين توفي، تذكر ما قاله، ونوى أن يحقق له وصيته، وإن تخطى في ذلك حدود الدين التي لا يعرفها تماما. سأل شيوخا يستفتيهم، فمنهم من اعتبر كل الأرض لله، ومنهم من اعتبر الوصية مقدسة بما لا يتناقض مع الدين، وأن الروح تظل ترفرف في الفراغ، ولا ترتاح إلا في موطنها. أخذ أبو ماهر بالرأي الثاني، فهو يريد السكينة لروح والده، وخشي أن يؤنبه ضميره إن لم يفعل، ولم يعتبر التفاصيل منافية للإيمان. كان إيمانه ببلدته، وبوالده الذي كبر وترعرع هناك، وتزوج هناك. كان هناك وطنه، وثقافته، فلم يكل أبوه، وأعمامه، ووالدته، من العيش على الذكرى، ذكرى السهول والمحصول، والماء، والمروج، وتلة البلدة التي عاشوا فيها، بل يسمونها أحيانا المطل، لأنها تطل على كل ما يحيط بها.

ساد صمت، ونحن في الحافلة المتجهة إلى الجنوب الشرقي، حيث جبال فقوعة، صمت بعد الدفن مباشرة، وقرر الشيخ محمد أن يقرأ بعض الآيات والدعاء، انسجاما مع الموقف، والخروج بعدها منه.

كان الطريق وعرا وصعبا، لكن الحافلة تصعده دون كلل. على الجانبين، كانت أشجار السرو تغطي كل المنطقة، وترى آثار النصب التذكارية لجنود قتلوا على هذه الجبال. نصب هنا على اليمين، ونصب هناك على اليسار، على طرف الشارع، وبين الغابة، كُتبت عليها أسماؤهم وتاريخ موتهم، بالعبرية طبعا. حفرت أسماؤهم على ألواح حجرية، مائلة قليلا نحو القدس. ما هو شعورنا أمام الموت؟ لقد دفنا أبو محمود قبل قليل، وشعرنا برهبته، ونهايتنا، فهل هو الشعور نفسه حين نرى قبور أعدائنا؟

كان جمال يمسك بالميكروفون، وألح على الشيخ محمد أن يقول شيئا عن جمال هذه المنطقة، وإن كان قد خبرها من قبل، فقال: أنظروا كم هي المساحة كبيرة وحرجية، تشبه الغابات. ابتعدوا بنظركم، إنكم وسط الغابة، هل كان من الممكن أن تسقط هذه المنطقة وغيرها عسكريا! لا طبعا، فلا يمكن لجيشهم ذلك، لقد سلمها العرب تسليما، ومنهم الجيش العراقي، تحت تبرير "ماكو أوامر". هذه المنطقة الواسعة والمرتفعة، توضح المؤامرة بكل تفاصيلها. إننا ضحية المؤامرات، ولن يحررها القادة الوهميون في الوطن العربي. إنني أرى أن المحرر سيكون من غير العرب، ربما من تركيا، والله أعلم.

هز بعض ركاب الحافلة رؤوسهم موافقين على ما قاله الشيخ، لكن غسّان ابن الحركة الوطنية، والعامل في إحدى مؤسسات القدس التوثيقية، لم يعجبه هذا الحديث، فنهض، وتحرك باتجاه السائق، حيث الميكروفون، وقال: يمكننا أن نختلف يا جماعة الخير، ومع كل الاحترام للشيخ، فإن تحميل الجيوش العربية هذه المسؤولية هو ظلم. ما قاله أحد ضباط الجيش العراقي، كان محدودا، بمنطقة معينة، ولا يجري على المعارك التي خاضوها، كان بعد تحرير جنين، وبعد قرار الناس بالعودة، جمعوا أنفسهم، والدبابة العراقية تتقدمهم، والمصفحات وراءهم، وفي منتصف الطريق، في السهل، وهم يرون قريتهم أمامهم، توقفت الدبابة، لوت حالها، فتساءل الجمع: نحن ذاهبون إلى زرعين، برفقكتم. أجاب الضابط بأنه لم يتلق أوامر لهذا الغرض، يجب أن نحمي جنين أولا. نحن نعرف كم هم أعداؤنا أقوياء، ومدججون بالأسلحة. إننا لا نبعد عن جنين أكثر كثيرا من عشرة كيلومترات، وقبور الجيش العراقي ما زالت هناك، فكيف نلومهم؟ لقد قاموا بواجبهم، كما جيوش أخرى، ولا يجب أن نعمم قولا، ليصبح تبريرا للواقع المر الذي نحن فيه. انظروا إلى جوانب الطريق، حيث ترون نصب قتلى العدو هنا وهناك. إن هذا دليل على المعارك التي خاضها آباؤنا وأجدادنا. من الذي قتلهم؟ ألسنا نحن وامتداداتنا منذ عقود. صحيح أن هناك بعض التسويات قد جرت، وسلمت فيها أراضٍ، لكن ما نراه هو شاهد على معارك خاضوها، ودفعوا ثمنها. إخواني: تم التركيز على مقولة "ماكو أوامر"، وهم يعلمون دور الجيش العراقي

بالتحديد، في محاولة منهم لتثبيت الهوية الفلسطينية في مواجهة محاولات الدول العربية لاحتوائها.

نحن الآن على رأس التلة، وعيون أبو ماهر، ما زالت تتجه شمالا حيث بقايا قريته زرعين. مشينا سويا في المنطقة، وكانت حشرات البرغش تطاردنا، كما لو أنها منطقتها، ونحن المعتدون، نهرب منها، أو نلوح بأيدينا لنبعدها، فتعود ثانية. كان هناك عشرات الأطفال، يبدو أنهم في رحلة مدرسية، ربما من مستوطنة قريبة، كانوا يتجمعون على شكل حلقات حول مدرسيهم، لا أفهم لغتهم جيّدا، لكني أستطيع أن أفهم الموضوع الذي يطرحونه. كان المعلم والمعلمة يتناولون التضحيات العظيمة التي قدمها أجدادهم، من أجل أن تكون لهم دولة. لكن البرغش لم يسمح لهم بالاستفاضة، غطوا رؤوسهم ببعض ملابسهم، وهربوا إلى الحافلات.

سألت أبو ماهر ونحن نتجول على رأس الجبل: وهل نهرب من البرغش؟ أبقى على سيجارته بين شفتيه، وقال: ربما، لكننا متعودون عليه، في المخيمات وفي الحقول، في مخيم جنين والحقول التي حوله، هناك الكثير مثله، دخن سيجارة، وانفث دخانها نحوه، سيبتعد. فعلت مثله، لكنه لم يبتعد تماما.

سألته مازحا: وهل يفرق البرغش بيننا وبينهم!

ابتسم، وقال: ربما، لكننا أكثر قدرة على التعامل معه.

- كيف يا أبو ماهر؟
- رغم أنهم يعيشون هنا، منذ أكثر من سبعين عاما، هل وجدت رعاة أغنام وأبقار مثلنا، يدورون في البراري؟

- لا.
- هل رأيت منهم من ينامون على سطوح بيوتهم صيفا؟ ألا يخلدون في الشقق، في طوابق البنايات العالية؟
- هل هذه علامات انتماء للطبيعة؟
- نعم. أعتقد ذلك.

حاولت أن ألتقط أكبر عدد ممكن من الصور، في كل الاتجاهات، فجذبني نحوه، وقال: هل ترى هذا الرجل الذي يبدو أنيقا؟ يبدو أنه مؤرخ، ويتحدث الإنجليزية لمن حوله. اسمع ما يقوله، إنهم يقرأوون التاريخ كما يودون، فالتاريخ ليس واحدا. دققت في عباراته، يتحدث بلغة الواثق عن بطلهم الماضي شاؤول، من قبيلة بنيامين، من أسباطهم. أنجب من زوجته الأولى أربعة أبناء وابنتين، وأنجب من الجارية طفلين. مات شاؤول في معركة جبال فقوعة، ودفن فيها، ومات ثلاثة من أبنائه في فقوعة، وأصبح ابنه ملكا في عمر الأربعين، لكنه قتل من قادته العسكريين. بقي له ابن وحيد، الأعرج، وتوج قائدا عليهم.

- لماذا الأعرج؟
- حكمة الله.
- هل لاحظت يا أبو ماهر، إنهم يحاولون أن يرتبطوا بتاريخ، الله أعلم به، وهم يأتون بطلبة المدارس، وبعلماء يشرحون لهم الارتباط بهذه الأرض. كيف يقبل العلماء ذلك؟
- هل تعتقد إن ثبت أن شاؤول وأبناءه كانوا هنا، مبرر لوجودهم هنا؟

- لا طبعا. الأمر يتعلق بالقوة، وعليها تصوغ تاريخك، تبرر فيها قتل الآخرين، ومصادرة أرضهم، وطرد الباقي خارج البلاد.
- ما هو تبريرك لهذه الأماكن الكثيرة من فلسطين التي وردت في كتابهم "التوراة"؟
- التبرير واضح، أنهم كانوا عشائر متنقلة، بدو الصحراء وبدو الجبال والسهول، تنقلوا كثيرا من منطقة إلى أخرى. أما كل مكان ذكروه، فيعني أنه كان موجودا قبلهم، فهم لم يبنوا مدينة واحدة.
- ما معنى أن تكون ابن جارية، كما يلقبوننا بأننا أبناء هاجر؟
- هو مجرد لقب من المرأة الأولى. ألا تلاحظ أن لقب ضرة، هو الآخر، لقب يطلق على الزوجات اللاحقات؟
- لكن اللاحقات، يقلن الشيء نفسه.
- إنها تشبه رد المسبة.
- هل المسبة تفيد يا أبو ماهر؟
- لا أظن، لكنها تعبير نفسي.
- هل هذا يفيد؟
- وهل الدعاء يفيد؟ ألا يشكل الدعاء التزاما بينك وبين الله؟
- والمسبة؟
- والمسبة.

مسيرة ساعة بين السهول، وقبل أن نبدأ المسار الصعب، ارتأى الحاج إبراهيم أن نستريح قليلا، فطلب من غسّان أن يفتح آلة التسجيل، ولنستمع لأغاني الزفة الفلسطينية. هي فقرة شبه متكررة في كل مسار نسلكه، وهي فرصة لنتجمع قبل الانطلاق بحيوية.

غنوا، ودبكوا ورقصوا. شاركت معهم بالتصفيق في المرحلة الأولى، لكني توقفت ولحقت بأبو ماهر، الذي بدا كأنه يبحث عن نبتة ما. كان وجهه حياديا، دون مشاعر، ودون كلام. أدركته، أمسك بي حين تزحلقت قليلا، وأمسكت به حين تزحلق هو أيضا. الأرض رطبة، ولزجة، حتى المشي على العشب كان خطرا، ربما المشي على حافة الصخور أكثر أمانا. سألته: عَمَّ تبحث يا أبو ماهر.

- لنبحث سويا عن عصي تساعدنا، لنبحث عن يد طويلة، تركزنا، وتمنع الإنزلاق.

لم نجد سوى سيقان نبتة الشومر، مغرية وأنا أنظر إليها من بعيد، بطول مترين، ورغم أن ساقها يصل قطره لحوالي عشرة سنتمرات وأكثر عند أسفله، فإنه فارغ من الداخل، وحتى أضمن امتلاكها قبل نزول الوادي، احتفظت باثنتين. قال أبو ماهر: لا تركن عليها، ولا ترتكز عليها بقوة، إنها تخدعك.

- لو عرفت ذلك، لأتيت بعصاي المعدنية.
- وما منعك؟

- رأيتهم على حاجز قلنديا، يمنعون أحدهم من إدخال مثلها، ولا أريد أن أفقدها.
- لماذا لم تشتر واحدة بعد الحاجز؟
- أنت تعرف أننا نأتي مبكرين، وأسواق بيت حنينا، تكون مغلقة.
- إذن عليك أن تركن على نفسك، لا على عصاتك، فهي مثل عصا سيدنا موسى، تتلوى حين تلقيها، وتلقيك حيث لا تدري، فتتلوى أنت.
- وأنت؟
- لنا الله.
- يبدو أنك تعرف المسار جيدا يا أبو ماهر.
- ليس تماما. فكنت أسمع كبار السن من البلدة، وهم يتحدثون عن هذه المنطقة، وهم يرعون أغنامهم. بعضهم عاد مكسورا طرفه، حتى الأغنام كانت تصاب أيضا.
- وما العمل؟
- ليس لنا والله إلا الحرص والصبر إن استطعنا.

وجدتها فرصة لأسأله عن جد حنان، عن الحاج خليل الزرعيني، وإن كان يعرف بيته القديم في القرية، أو بيته في بيسان. فأنا مشغول بالبحث عن بيتها، ولا أعرف إن كنت أستطيع ذلك وحدي، فلا بد من مساعدة. لم أنتظر طويلاً لأسمع إجابته: كثيرون غادروا القرية، لأسباب مختلفة، وفي اتجاهات مختلفة، وحملوا

لقب "الزرعيني"، لكن اسم "الزرعيني" لا يعني أنهم من العائلة أو الحامولة نفسها. ربما هم فقط يستطيعون معرفة أصولهم، فلا أعرفهم.

لا أعرف كيف أصبحت رابع أو ثالث هذه الثلة، لم نسلك طريق الوادي، بسبب صخورها التي قد تكون مميتة لو تزحلقنا، فنصحنا أن نمشي على طرفه، بموازاته قدر الإمكان. يبدو أننا كنا نبتعد قليلا قليلا عن الوادي كلما سرنا شرقا، وقبل أن نصل إلى أعلى التلة، وكنا نشاهد رجلا يسير في الوادي. صاح جمال: هل ننزل الوادي كما فعلت أنت؟

كنت أتوقع، وهو آخر من تبقى من الفريق أن يطلب منا أن ننزل ونرافقه، وهو الذي يبدو عليه معرفة الطريق، فقبل حوالي الساعة كان يمشي منفردا باحثا عن نبات الفطر. بدا لي أنه يعرف ما يريد، ويستطيع إسداء النصح.

كنا على طرف التلة، وهو في قاع الوادي، فأجاب على سؤالنا: الجبل الجبل.

لم نكن نحن سارية، ولم يكمل القول: من استرعى الغنم الذئب ظلم. ولم يكن القائل خليفة المسلمين، ولم يكن يخطب على منبر رسول الله، ولم نكن نحن في غزوة أو فتح، ولم نكن في بلاد فارس، ولم نأت هنا محررين. جئنا زائرين، ومشيعين لأبو محمود الشلبي، وكل جاء وفي باله هدف مغاير.

لم نكن نحمل سيوفا، ولا ممتشقين سلاحا، إلا إيمانا بأن هذه الأرض لنا، وهل يكفي الإيمان؟ لكن بما أن ما قاله، يحيي التاريخ القديم، ونحن نحبه ونبجله، ونعتبره من المسلمات، صعدنا الجبل رويدا رويدا، فوجدنا أنفسنا وحدنا. لم ننتصر على أحد، وبتنا تحت أمرة جمال، الذي اتصل بالشرطة لإنقاذنا. هذه المرة ليس الفرس، وإنما شرطة إسرائيل. هل صارت منقذة لنا من مأزقنا؟

أبو ماهر، يقف وحيدا، مثلنا تماما، يكثر من نفث دخان سجائره التي تسلم الواحدة الأخرى لفمه، يخاطب نفسه أكثر مما يخاطبنا، يتحدث مع حاله، ولا أعرف ماذا يقول. إنه يهذي، ربما ظن أن الشرطة قد كشفت أمره، أمر نقله لرفات أبيه، وما هذه إلا حيلة للامساك به، وزجه في السجن ومحاكمته، أو طرده. يتساءل: لِمَّ تبعت جمال! لِمَّ أكون من المتأخرين، من المتورطين؟ كان قد شاهد جمال، على إذاعة الحافلة يلقي دروسا عن زرعين، وجبال فقوعة، فظن أن المشي وراءه هو طريق النجاة. ألقى محاضرة وراء أخرى، تحدث عن زرعين كأنه خبرها من قبل، وتجول في ربوعها. تحدث عن بعدها عن مدينة جنين، وعن مساحة أراضيها، وارتفاعها عن سطح البحر، وعدد سكانها قبل الهجرة، والمتوقع هذه الأيام. وأشار لأسماء المستوطنات المقامة على أراضيها، بعد تهجير أهلها، وهدمها.

تحدث عنها كأنه جزء منها، فراح يروي المعارك التي تم خوضها حتى تم احتلالها في أيار، وسمى عائلاتها: الشلبي، ولحلوح، والفايد، والمطاحن، وأبو حلاوة، وعامر، والمقصقص. وسمى مناطقها: السباتي، والجوانيات، والعمياء، والمصرارة، والكتوف، وكارة.

وفي محاضرة أخرى، تحدث عن قرية فقوعة، بتفاصيل أكثر، ثم معارك جبال فقوعة القديمة منها والحديثة، ودولة ظاهر العمر، ومعارك عين جالوت.

لاحظ أبو ماهر، وهو القادم الجديد إلى فلسطين من الأردن، لاحظ جمال وهو يساعد قائد الفريق، وينادي أن نتوقف هنا للفطور، وللراحة، وللتجمع، وهو الذي يسجل أحداث الرحلة، فكيف لا يعتقد بأنه قائد أيضا؟ وكيف لا يتبعه حتى وإن ضاع؟

وجد نفسه يسير وراءه، إلى أن أصبح أسير صحبته، وأسير وحدته معه، واثنين آخرين.

ربما كان مثلي، لا يودّ المواجهة الآن، ولا الخضوع للتحقيق، ودّ لو نزل الوادي حين نادانا الحاج إبراهيم، ودّ لو رافق السلامين كمنقذ لنا من أعلى التلة، ودّ لو انفصل عن الفريق، لكن السؤال الذي حيره هو: ماذا لو نزل، وجاءت الشرطة لتسأل عن أربعتنا، ولا تجدنا؟ أليس هذا الأمر كافيا لمزيد من التحقيق؟ هو يودّ لو تنتهي هذه الرحلة، وأن يعود إلى الأردن حتى لو كان الموعد غدا، فنقل الرفات من الخارج، ومن ثم دفنه في قبر جده، أمر تعتبره إسرائيل خطيرا، بل ربما يشكل سابقة علنية، أو مطلبا دوليا، وما مقابر الأرقام إلا رهينة للتبادل فيما بعد، ونقلها إلى الخارج، فهم لا يودّون الناس هنا أحياء أو أمواتا.

حاول أبو ماهر تجنب الشرطة، ولكنه لم يعاندها لئلا ينكشف أمره، ولم يود التصريح لأيهم أنه قادم من الأردن، إلا إذا اضطر لذلك. أمسك به الشرطي لمساعدته على قطع الأمتار المتبقية، وبذلك أوقف الإمساك بسيجارته. طلب أن يشرب الماء، فأعطيته ما أمتلك، وبذلك منعت عنه أن يتناولها من الشرطي. حاول الشرطي أن يسأله بعض الأسئلة الشخصية، لكنه حاول أن يظهر جسده مرهقا وتعبا. ارتكز على كتف الحاج إبراهيم مرة، وعلى كتف الشرطي مرة، حتى تجاوزنا وعورة المنزلقات وخطرها.

نادى رجل الشرطة، أن سياراتهم جاهزة لنقلنا، وطلب من أربعتنا على الأقل للركوب. لم أفعل أنا، وتظاهرت أن جسدي قادر على المسير حتى الحافلة. أما هو، فمشى مع التيار، وركب واحدة منها. شرب ماء، وأكل بعض البسكويت الذي يحملونه.

كان وحيدا في السيارة في المقعد الخلفي، وفي الأمام شرطيان. سألاه عمّا حدث، لماذا تأخرنا بعد مغيب الشمس، لماذا سلكنا هذا الطريق، وأسئلة أخرى.

أجاب، بأنه لا يعرف شيئا عن المنطقة، ولا عن المسار، إنها المرة الأولى له، ويود أن يروّح عن نفسه، فالتحق بالمجموعة التي عرف عنها بالصدفة. هم مجرد رواد لعمل اجتماعي طوعي، وأحبوا أن يذهبوا معا، وأن يجربوا هذا المسار. أجاب بأنه يود أن يصل القدس بسرعة، ويلتقي بأسرته، وينام بين أحضانها.

لم يسألوه عن أسرته، ولا عن بلدته، ولا عائلته. سعد بذلك. لكنه توجس من أسئلة أخرى، والعربة تسير ببطئ في هذا الطريق الزراعي الطيني. ود لو سارت أسرع، وتظاهر بالتعب. اقترحوا عليه أن يأخذوه للمشفى للكشف عن صحته. أفاق من سكونه، وبيّن لهم أن صحته بخير، وأن أسرته ستقلق عليه لو تأخر. طلب هو هذه المرة ماء، وأشرقت عيونه حين اقترب من حافلة الرحلة، فنزل مسرعا شاكرا لهم مساعدتهم، وحاول الاختفاء بين الجمع.

اتجه بنظره غربا، ما بعد السهل، إلى قمة التلة، إلى ما حولها. حاول أن يتبين صعوبة النزول من جهات أخرى. أصيب بالصدمة، حين عرف بأن أية خطوات بأي اتجاه غير الذي سلكوه، كان سيودي بحياتهم. كان ظهر التلة منبسطا قليلا، حيث لا يراه الآن تماما، لكن حدة الميلان التي استطاع أن يراها عن بعد، وبشكل غير واضح، كانت مميتة.

تطلع نحو الشمال الغربي، نحو قريته زرعين، لكن العتم كان قد غطاها، فالضوء ينير ما حول مزارع السمك، وما حول الشوارع، وتبين له أن بيسان كانت أبعد مما ظن، وأن منطلق الرحلة، من مزرعة المراوح كانت أبعد، فهي تختفي خلف هذه التلال، خلف هذه الطبيعة، التي ما زالت تحافظ على نفسها منذ خلقها الله.

فكر أن يشكر الله على ما وصلت إليه الأمور، فما زال بصحته، وبكامل وعيه، لكنه وجد نفسه يدعو لأبيه، ولجده، وللأموات الذين كان بينهم قبل ساعات.

ركب الحافلة، والتحقيق جار مع بعض مرافقيه، انكمش في المقعد بقدر الإمكان حتى لا يراه أحد، وأسدل الستارة لئلا يرى أحدا. طال التحقيق بعض الوقت، وهو لا يعرف أين هو، ومتى ستنطلق الحافلة. رويدا رويدا صعد الفريق، أشاح بوجهه عنهم، كأنه ليس هو الذي كان قبل ساعات. انطلقت الحافلة، والحاج إبراهيم يحيي الفريق فردا فردا، ويشجعهم على بطولتهم باجتياز المسار، وبالسلامة للجميع. تجول الحاج إبراهيم في الحافلة من أولها إلى آخرها، وهو يسلم على كل منا، ويطلق بعض النكات، وكلمات التشجيع.

فجأة فإذا بجمال يمسك المايكرفون ثانية، وكأن شيئا لم يكن، يتحدث في لا شيء، يحاول أن يرمم ما صار، يحاول أن تكون الأمور طبيعية، حتى أنه طلب مني أن أتحدث عن فن إدارة الأزمات. جررت جسدي محرجا، ولم أقل سوى أني اعتز بالفريق، وبمساراته.

ساد صمت في الحافلة، صمت طويل دون همهمات، والعيون تحاكي بعضها، بشيء من الاستغراب، والفرح والغضب.

## أبو نهاد

ربما لو لم يكن وجود أبو نهاد في المسار بيننا، لما وقعنا في هذه الأزمة. يبلغ من العمر خمسة وسبعين عاما، طويل البنية، أشقر الوجه والشعر. هو من قرية عمواس المهجرة والمدمرة في حرب حزيران، بالإضافة إلى يالو وبيت نوبا، هُجروا إلى رام الله ومخيماتها، واستطاع بعضهم السكن في القدس. حين وصلنا قرية عمواس صباحا لنستريح قليلا ونتناول الفطور؛ وقف في منتصف الحافلة، وقال أقرب إلى الجد: هذه بلدتي، لو سمحتم، مطلوب أن تدفعوا "دخولية"، فهذه أرضنا، وتلك عيون الماء، وشجر الصبر والخروب والتين. أنتم ستستخدمون أرضنا، ولا بد أن تدفعوا، فأنتم تعيشون الآن في الجنة.

- وهل الجنة بحاجة إلى تذاكر؟
- العمل الصالح، ومنه الصدقات.

استقبل ركاب الحافلة ما قاله أبو نهاد، مرة بالجد، وقالوا: مستعدين. ومرة أخرى بالهزل: حاضرين يا أبو نهاد، لكن أهالي عمواس كرماء، وإذا كان لا بد من دفع دخولية، فما رأيك أن تجمعها ليس منا، وإنما من هؤلاء الغرباء الذي يسرحون ويمرحون فيها دون رقيب؟

- والله يا جماعة، لا أعرف إن كنت أفرح لحضوركم ضيوفا على بلدتي، أم أحزن، فالبلدة لم تعد مسكني، بعد أن خربوها، ولم يبق منها غير نبع الماء، وما حوله من أشجار، ومقام سيدنا أبو عبيدة بن الجراح.
- والله شكلك يا أبو نهاد كنت تظل في طريق العين لالتقاط نظرات من الصبايا؟
- آه والله، رغم أنه كان ممنوع علينا أن نطيش؟
- وكيف تزوجت إذن؟
- بنت عمي، مثل معظم الناس.
- أكيد يا أبو نهاد كل البنات كانت تحبك. طول وجمال.
- آه، بس كانوا يحبوا يشوفوني في الدبكة والرقص.
- المهم يا أبو نهاد، لسه بدك ندفع مصاري دخولية بلدكم؟
- اليوم مسامحين، أهلا وسهلا. هنا كنا نلعب، وهنا نمرح، وهنا كان بيتنا، وهذه حارتنا.

أبو نهاد يأتي عادة بعصاه، أو يلتقط واحدة من الشجر، يشذبها ويتكئ عليها، لكنه هذه المرة جاء على رجليه الاثنتين، ويديه الفارغتين، وحقيبة ظهر حمل فيها بعض طعام للفطور والغداء. وجد في الزملاء عِصيا له، ولأنه يحب بلدته، ويرى فيها كل شيء، يرى الحقول والآبار:البئر التحتاني، والفوقاني، وتوفيق، والعامرية، وبتريدس، والحلو، والنيني، وإسماعيل، وأبو مخلوف والعقد. يرى بقايا البناء، راح يتذكر شبابها، ورجالها، ونساءها، وصباياها.

اختار لنفسه، أن يأكل مما تراه عيناه، فكان هناك شجرة خروب، ما زالت تحمل بعض الثمار، فنادرا ما يلتقطها إلا أمثالنا، ولو أمسكوا بنا ونحن نلتقطها، لدفعنا غرامة، ليس فقط على هذه، وإنما الأعشاب، والشجيرات. حزم أبو نهاد أن يتسلق شجرة الخروب، ورغم ضعف بنيته نتيجة العمر، فإنه ما زال يعتقد أنه شاب، أيام العيش في القرية، تزحلقت قدمه، فإذا به معلق على غصن فأمسك به. اندفع غسّان نحوه فطوّقه، وطلب منه أن يرتاح قليلا، وهو الذي سيحضر له ما يريد من الثمر. جلس أبو نهاد على حجر، وهو يشير بيديه إلى الثمر، وهو يرفع رأسه، ويميل بجسده إلى الخلف. صاح أبو نهاد: لا تكسر أغصانها، هي شجرتنا. إذا كنت لا تعرف كيف تقطف ثمارها، سأفعل ذلك أنا. وهم أبو نهاد بالنهوض.

قفز غسّان عن الشجرة، وأمسك بأبو نهاد، وشده نحوه.

- ما الذي تفعله؟

- كنت يا أبو نهاد على وشك الوقوع في البئر خلفك.
- أمتأكد أنت؟ بئر دار أبو العبد؟ كانت أبعد من ذلك، وكانت مسقوفة.
- التفت، وسترى. قول: الحمد لله. لا تبتعد عنا يا أبو نهاد، من أين لنا مثلك لو وقعت؟ من الذي يستطيع أن يخرجك؟ وربما ستكون هناك الأفاعي.
- أفاعي في البئر؟
- نعم، كل شيء ممكن.
- كيف ستتغذى وهي في البئر؟
- يأتيها الله برزقها، وإلا لنفقت.

شعر أبو نهاد بالموقف الصعب الذي كان فيه، وتخيل الأفاعي، والماء الآسن، والطحالب. الله ستر. شعر أبو نهاد بالحرج حين وجد أن غسّان أكثر حرصا منه، وعلى معرفة منطقية باتت بعيدة عنه قليلا.

طاف أبو نهاد كغيره في قرية عمواس، وحاول التعرف على أصحاب القبور، فهو يذكر الذين دفنوا قبل الرحيل. وود أن يعرفنا عليهم. هذه قبور أقاربي من دار أبو قطيش، وهذه قبور آل برغش، وهذه لآل قدورة والناشف ومصلحة والأعرج، تلك القرية الوادعة في منطقة اللطرون، تتوسط المسافة بين القدس ويافا، قاتل فيها الجيش العربي بشراسة، وقاتل الثوار بكل إمكاناتهم، رغم بساطتها، فمنعوا احتلالها، وظل الدير كما القرى المجاورة على الحدود الجديدة. قال أبو نهاد: وصلنا رام الله أفواجا، حيارى، مرتبكين، متحفزين، جال نديم الزرو، رئيس بلدية رام الله، وصاح باستخدام مكبر الصوت أن نرجع، بدل أن نتحول إلى لاجئين. عدنا حتى وصلنا قرية بيت لقيا، وعلى مشارف قرية بيت نوبا، أمطرنا الجيش بالرصاص، فوق رؤوسنا، فمنَا مَن سكن رام الله والقدس، ومنَا مَن هاجر إلى عمان.

أضاف أبو نهاد: لقد نجحنا في تبديل اسم المتنزه "بارك كندا"، بعد احتجاجاتنا الرسمية لدى الحكومة الكندية، فهم أرادوا تحويلها لمكان للاستجمام، غطوا القرية بمقاعد للمتنزهين، وبزراعة أشجار تخفي معالمها، تغير اسمه إلى "بارك أيالون". أعرف مواقعها جيّدا، وأعرف أسماء أصحاب البيوت، فهناك كان بيتنا، بين أشجار الزيتون والتين والصبار والعنب. نأتيها لاستعادة روحنا وروحها. كان يأتي الشباب، ويغرسون لافتات تبين معالمها، لكني آتي لزراعة لافتة على موقع بيتنا، باسمنا.

أكمل: استدعاني الحاكم العسكري مرة، وسألني: أأنت الذي وضعت اللافتة باسم أبيك؟

- نعم.
- البلاد راحت يا أبو نهاد، ما لك غير أن تعيش في القدس، كما سمحنا لك، يعني أن تكون مواطنا صالحا.
- هل تعترف بأن مدينة اللد بهذا الاسم؟
- طبعا، ورد اسمها في التواراه.
- هل تعترف بأن عمواس بلدتي؟
- كانت بلدتك.
- من أي دولة أنت؟
- أنا من هنا.
- من أي دولة أبوك؟
- بلاد كثيرة.
- هذه بلدتي. افتح الخارطة، وشوف اسمها.
- إذا كررت ذلك سنعتقلك، ونحاكمك.
- وماذا سيكون جواب القاضي في المحكمة؟ هل ينكر أنني من عمواس؟
- كنت من هناك، نحن هناك، ونحن هنا.
- أنا من هناك ومن هنا، وأنت من هناك .. هناك.
- هل تنكر بأن عمواس كانت قرية مسيحية؟

- المسيحيون والمسلمون أصحاب أرض وهوية. أنت لا. عمواس فيها كنائس، وفيها مساجد ومقامات. ما لك أنت بهذه القضية؟
- ربنا أعطانا الأرض.
- وهل ربكم كاين فاتح دائرة طابو؟
- شايفك بتزيدها. إذا تغلبتم علينا اطردونا، واقعدوا مكاننا، وسموها ما شئتم.
- الله كريم.

اعتاد الفريق أن يقوم بعمل حلقة فرح، ورقص، والأغاني جاهزة، خاصة أغاني الزفة: وسعوا الميدان يا بي ولد، والفرحة للصبيان، درج يا غزالي. وفي حين ينتظم بعض الأخوة في حلقة أشبه بالدبكة، أو مشجعين لهم، فإن أبو نهاد يحب أن يستعرض ليونة جسده بالرقص. إنه يجيد الرقص، يلوح بيديه أماما وخلفا، ويقلبهما، يمدهما ثم يجمعهما إلى جسده، ويهز رأسه بتمايل خفيف، ويهز خصره في كل اتجاه، ويحرك رجليه بخطوات متماوجة. وكلما رأى الحاج إبراهيم هذه الحركات، يشجعه: أيوا يا أبو نهاد، كمان، كمان. وأبو نهاد يوزع ابتسامات على الحلقة حوله، يدقق في كل واحد منا، ويرقص، وينتقل من نقطة إلى أخرى بحركات رتيبة متزنة.

أبو نهاد يشعر بالسعادة بهذه المشاركة، ويراه الآخرون تعبيرا مناسبا، حتى لو اختلفوا عنه. يكسر هذه المشاركة، عدة أعضاء من الفريق، وهم يلوحون بعصيهم، على أنغام ما يشبه الدبكة، أو ما يشبه الرقص الصعيدي، لكن الدبيك بينهم، ورغم قدرته على القول أحيانا، مما حفظه أيام شبابه، أو أيام كونه رجلا يقود المظاهرات الوطنية ومناسباتها، يشعر بالضياع، فلا يمكن الإتيان بحركات الدبكة واتقانها في ظل هذه الحركات العشوائية من حوله، والدبكة عمل جماعي، ويمكن لأي فرد لا يعرفها أن يفسدها. هو لا يهمه ذلك، ولا يهم الآخرين، فالمقصود المشاركة بفرح مؤقت قبل الانتقال لمحطة أخرى على طريق قرية زرعين، وجبال فقوعة المقصد الأساس.

- هل تسمح لنا أبو نهاد أن نجمع بعض أغصان المريمية؟
- طبعا، وهناك عند النبع النعنع، وهناك في أعلى التلة الزعتر البلدي.
- ماذا ستغني لنا في الحافلة؟

فبدأ يغني قبل أن نستقلها، أغانيه منوعة بين أم كلثوم، ووردة، وعبد الحليم، وصباح فخري، لكني لا أفهم لماذا يغير في اللحن والكلمات، ولولا أني أتذكر هذه الأغاني لما عرفت ماذا يقول.

تجول أبو نهاد كغيره في قرية زرعين، لكنه كان يتوقف وحده، بطوله الفارع، يتأمل شرقا وغربا وكل اتجاه. أطال النظر نحو عين الماء، وهو يسمع أصوات أطفال ونساء يلهون قربها، محاطة بالأشجار، وخرير الماء يسمعه من هذا البعد. إنه يرى في كل القرى المدمرة قريته، فالحال سواء بسواء. وهجرة أهالي عمواس دليل أنهم يمكن أن يهجروا قرى أخرى في وقت ملائم، تحت حجة الأمن أو غيرها. قرية زرعين تقف على رأس التلة المشرفة شرقا وغربا، وعلى مشارف عين جالوت، فهل كان ممكنا أن لا يحتلوها؟ لا طبعا. هل يمكن أن يتغاضوا عن هذه السهول الجميلة في كل اتجاه؟ لا طبعا.

دقق النظر في الأرض، فإذا به ينادي: تعالوا. احزروا ما هذه النبتة.

تجمعنا حوله، ودققنا النظر في نبتة، تبدو أوراقها خضراء، مجعدة، عريضة من وسطها، كأنها تبدأ من الجذور. عروقها بائنة، تغطي قطرا يزيد عن الشبرين.

- هذه يبروح.
- بل جربيح.
- بل لفاح.
- بل مجن.
- بل خوخ الجن.
- بل تفاح الشيطان.
- بل تفاح المجانين.

- بل شجاع.

أجاب: هناك أسماء متعددة للنبتة الواحدة، نحن نسميها شجاع، فهي تكسبنا الشجاعة.

- بِمَ تكسبك الشجاعة يا أبو نهاد؟
- في كل شيء، حتى في الأمر الذي فكرت فيه.
- هل أنت متأكد؟
- نعم.
- دعنا نأكل منها.
- هذه أوراق لا تؤكل، بل يؤكل ثمرها حين تنضج، حين يتحول لون الثمر إلى البرتقالي.
- وقبلها؟
- تسبب الجنون.
- وما علاقة الجنون بالشجاعة؟
- الشجاعة جنون.
- هل يعني أننا لن نأخذ حبوب الشجاعة هذا اليوم؟
- لا، فالفصل ما زال شتاء، وهذه تنضج في الصيف.
- فكيف نكون شجعانا إذن؟
- أخبروني أنتم، ربما تصبحون مجانين. كل شيء حولنا يدعو إلى الجنون، سواء أكلنا من هذه النبتة أم لا.

صمت أبو نهاد، وراح يدقق نظره في نبات آخر، ليعرفه، فلقد غاب عن حياة الفلاحين طويلا، أخذته الحياة في المدينة، وأخذ عمله كتاجر في المصرارة كل وقته. سكن في "رأس العامود"، ليشرف على القدس العتيقة، وظل مستأجرا شقة طوال هذه العقود. لم يبن بيتا، وظل يحن للعودة إلى قريته.

قبل أن ننطلق بالحافلة لبدء مسار المشي، توقف الفريق عند صخرة كبيرة، مخرمة، صنعتها الطبيعة، يملأ التراب بعض فجواتها، وتظهر منه نبتة الزعمطوط، وزهورها الجميلة، حنون قرن الغزال. بدأ البعض بأكل ورقها الحامض قليلا، أو بقطف زهورها، وكلها قابلة للأكل.

سأل أبو نهاد: هل تعرفون كيف تطبخونها؟

- مثل الملفوف.
- يمكن، لكنها تؤكل مثل ورق اللسان، صومي.
- من أين جاء اسم صومي؟

أجاب غسّان: أظن من المسيحية، فيحرم علينا في الصيام أن نأكل اللحوم، فنحشيها بالأرز والخضار، ونأكلها.

- على الأقل هناك ما تأكلونه في نهار صيامكم.
- الصيام صيام، حتى لو كان مسموحا لك أن تأكل شيئا.
- يكفي أنكم تشربون الماء.
- ويظل صياما حتى لو شربت.
- لنعود أخي غسّان إلى النباتات. ماذا توحي لك هذه الصخرة؟
- إنها تشبه الباخرة، تحمل عليها الطوطو.
- وماذا عن أشجار البصل التي حولها؟ هل تعرفها؟
- نعم، تكثر على المقابر، لكني نسيت اسمها.

- نسميه البصّيل أو البصلان.
- وما علاقة البصيل بالطوطو؟
- لا أعرف. ربما واحدة تؤكل، والأخرى لا. ربما واحدة للحياة والأخرى للموت.
- هل تعتقد بأنهم هم الذين زرعوها في منطقة واحدة.
- الطوطو طبيعية، وربما زرعوا البصيل بجانبها.
- لماذا؟
- لا أعرف.
- وماذا تعرف؟
- أعرف أن أهالي بلدتنا، كانوا يجمعون الحجارة الصغيرة المخرمة، ويجعلونها زينة في ساحة البيت.
- والبصيل؟
- ربما يزرعونه على المقابر، لأنه يغطيها باللون الأخضر، والزهر البنفسج.
- يزرعونه، أم ينبت وحده؟
- يزرعونه، فلا يمكن لبصيلاته أن تطير مع الهواء. لكنها تمتد طبيعيا حولها ببطء.
- ممكن.

بدأ المسار سهلا في أوله، بل ربما قطعنا ثُلث المسافة، بين السهول، ومزارع الأبقار، والتربة الحمراء الغامقة، نقطع الشارع بعد مزرعة المراوح، ونمشي في أرض سهلة نوعا ما، ليست منبسطة، لكنها بانحدار بسيط. كنت مهتما بمنظر المراوح، ونحن نغيبب عنها شرقا رويدا رويدا. كنت مهتما بالتقاط صورها مجتمعة، قبل أن تختفي، بينما يغطي الضباب بين التلال. كثيرة هي الأعشاب والشجيرات على سفح التل، بينما تقل الأشجار، فشجرة زعرور هنا، وأخرى حرجية هناك.

لحقت بأبو ماهر، المنعزل في مساره، وسألته: أترى الضباب؟ هل نراه ونحن وسط الوادي؟

قال: لا، أنا لا أخشى شيئا الآن، قمت بمهمتي، ولست أخشى على جثة والدي في إناء بلاستيكي، يعني لن تطاله الأمطار، لو أمطرت.

- وهل تخشى عليه من المطر؟
- قمت بمهمتي وانتهى الأمر، وماذا بعد الموت إلا ما وعدنا الله وآمنا به؟

تدخل أبو نهاد، وسأل كالمتفكر في أمور الدنيا، وأمور نهايتها: لم أسألك يا أبو ماهر، هل أفعل؟

- تفضل.
- يقال بأن المرء يُسأل في القبر، فهل يعني أن أباك الآن يُسأل؟
- لا أعرف.

- لكنكم شيعتم جنازته أكثر من مرة، فهل يتم سؤاله في كل مرة، أم هي مرة واحدة، هي الأولى؟
- لا أعرف، ولا أعرف إن كان سيسأل أم لا، فهناك رؤى مختلفة، ولا أعرف بماذا سيجيب.
- أتساءل والله، لماذا لا نُسأل ونحن في الدنيا. أنا أحس كذلك، فضميرنا يتدخل عند كل جملة نقولها، وعند كل سلوك.
- ماذا تقصد يا أبو نهاد؟
- أقصد أن الله يسألنا في كل وقت، وقبل أي سلوك وبعده. ليس معقولا أن تتجمع الأسئلة في القبر، وليس يوم القيامة.
- ماذا تقصد يا أبو نهاد؟ أكاد لا أفهمك.
- أقصد أن يوم القيامة، هو يوم إعلان النتائج، وليس فيها حوار بين طرفين، هو قرار الله تعالى بما فعلناه، ونحن حينها، واليوم وغدا، نعرف ما أصبنا وما اقترفنا، ونعرف مصيرنا.
- ربما صحيح ما تقوله، وماذا نقول اليوم؟
- ها نحن في المسار، نرجو أن يوفقنا الله ونجتازه، فإذا رضينا عن سلوكنا من داخلنا، فالله معنا.
- الله معنا إن شاء الله.
- هل هذه الجنة؟
- بلادنا جنة.

- بلدتي أم بلدتك يا أبو ماهر؟
- كلها جنة، ربما سنحشر هنا. الأفضل أن يحشر كل واحد في بلدته.
- ربما. يا ريت.

سألت أبو نهاد: كيف تبدو الأمور عمي؟

- تمام. تمام التمام، وأنا تمام التمام، وزوجتي تمام.
- أنا أسألك عن صحتك، وعن هذه المناظر؟
- تمام، تمام التمام، وأنا تمام التمام، وزوجتي تمام.
- كلكم في مثل هذا العمر تقولون ذلك، تكابرون.

غمزني بعينه، ودوّر السبابة والإبهام، وفرد أصابع يده اليمنى، وبحلق عينيه، وصمّ شفتيه قبل أن يقول: تمام.

لم أكن أقصد ما ودّه أبو نهاد، كنت أقصد هذا المنظر الذي أراه، واستطعت التقاطه بآلة التصوير. نتوزع على تلتين متقابلتين متقاطعتين، الأقرب هي اليمنى، وأكثرنا عليها، بين الشجيرات والأعشاب، والصخور والحجارة، والأرض الرطبة، والوادي منبسط إلى حد ما، وتبدو الصخور العالية في الجهة اليسرى أكثر من اليمنى، بألوانها المختلفة التي تكونت عبر الزمن. تلال طبيعية منذ الأزل ربما، أو لعبت فيها عوامل تعرية الطبيعة من رياح وأمطار ورطوبة وحرارة. أعضاء الفريق، يحملون على أكتفاهم، وظهورهم ما خف حمله، وما لزم، من ماء وفواكه وحلويات، بينما يحمل بعضهم أكياسا بألوان مختلفة، يجمعون فيها ما أرادوه، أو ما وجدوه، وكل يغني على ليلاه، ولم أغنِّ لليلى، بل كنت أرى حنان، فبلدتها أمامي، بمبانيها غير الواضحة تماما، إذ يفصلنا عنها ما تبقى من الوادي الذي لا أعرف تضاريسه بعد، ومزارع مختلفة الألوان، ومختلفة الأشكال، فمنها

المربعة والمستطيلة، والمثلثة، والدائرية، ومنها الخضراء والزرقاء والبنية، ومنها المغطاة بالبلاستيك. إنها مزارع الخضار والفواكه والأسماك، تختلط أحيانا وتتباعد، تشقها شوارع ترابية زراعية، ويشق عرضها سكة حديد لأغراض النقل. أرجو أن أتمكن من التجول في بيسان، المباني القديمة، وأجد بيت الحاج خليل الزرعيني، وأحدد ظلال الصورة التي تركوها معلقة على مدخله. جمال بيسان يسلب عقلي بسهولها، وموقعها الأخاذ.

- ماذا تقول في هذه يا أبو نهاد؟
- أقول إن البلاد كانت أجمل، فكل أهالي البلاد كانوا يعيشون بين هذه السهول، وكانت تستخدم لزراعة الحبوب أيضا. ألا ترى أن هناك طرقا عريضة تفصل الأرض عن بعضها؟ ألا ترى أن القطار يشوهها؟ لقد كانت أجمل. الأرض أجمل بأهلها. هؤلاء مجرد مستأجرين مؤقتين من الدولة، يحاولون استغلالها إلى أبعد حد، لا ينتمون لها، ولا تنتمي لهم.
- وكيف ترى الأفق الشرقي؟

بدأ يتأمله، وبدأت أنا الآخر بتأمله، يبدو نهر الأردن ضبابي الشكل، فلا تستطيع تحديد موقعه بالضبط، وسماء صافية لمسافة أعلاه، ثم تتقاطع غيوم بألوان عديدة، منها الأبيض والأسود وما بينهما، فنحن في الثلث الأخير من شباط، وأمطار سقطت قبل ايام، وأمطار ستسقط بعدها.

كم تبدو الأردن قريبة! كم تبدو الأردن بعيدة! وكم هي المسافة الباقية لننزل إلى مستوى السهول؟ وددت أن ننتهى بسرعة، وودت أن نظل نرقب هذا الجمال، جمال الأفق، وجمال الطبيعة، وجمال أعضاء الفريق قبل مغيب الشمس.

وقف الحاج إبراهيم في مقدمة الصف، وقف على صخرة، وقال: هذه هي بلادنا، ما أجملك يا بلادي! نزلت الأبطال على موج البحر، وما تهاب الموت ودروب الردى، وما حدا يدعم ساحتنا ما حدا، هذه دار القدس واحنا رجالها. هز بعضنا رأسه، وقال آخرون بأصوات متلاحقة: الله عليك يا حاج. قال: من هنا يبدأ المسار الصعب، هناك علامات للمسار بالأزرق والأبيض، ثلاثة خطوط متلاصقة، اتبعوها، ربما تتزحلقون من رطوبة الأرض والعشب، انتبهوا جيّدا، إذا اضطررتم، فسيروا بموازاتها. ابحثوا عن عصي تساعدكم، واعرفوا أن العصي التي ترونها لن تحميكم، إنها عصي الشومر، تتكسر بسرعة، تخدعكم، تراصوا، وليساعد بعضنا بعضا. توكلوا على الله، ليحمل كل منكم عصاه ويتبعني.

توكلنا على الله، وقطعنا سيقان الشومر، وقطعت أنا اثنتين، وضبطتهما بالطول نفسه، وارتكزت عليهما. سرت مسافة قصيرة، فإذا بإحداهما تتكسر، فأخذت ثانية، وسرت غير واثق. استخدمت العصي وأنا أسير على الأعشاب، لكن الأمر كان صعبا بالسير على الصخور في الوادي، تكسر سريعا، فعادت أقصر، أنحني لأتوكأ عليها، أنسى نفسي، وأثق بجسدي، فإذا بي قد وجدت نفسي كومة، رجلي اليمين تحتي. نهضت، وتحاملت على جسدي وألمي، وسرت.

أبو نهاد، يمشي متأرجحا، رأى ما حدث معي، فسار في بعض المناطق على أربع، أراه يزحف زحفا، وهو ينزل المنحدر الصخري، ورغم وجود العلامات، ووجود الحلقات المعدنية، لتشكل سلّما للنزول، إلا أن توزيعها ليس عموديا دائما،

فيحتاج أن يروح شمالا ويمينا ويلحقها. تزحلق على إحداها، فوجد نفسه معلقا، ممسكا بيديه الأعلى منه. ارتجف الذين حوله، منهم جمال، فراح يرتب الفريق الأصغر، بواحد أمامه، وآخر خلفه. طال الزمن ونحن ننزل المنحدر الأول، ولا معنى للقفز إلى نهايته، فربما تكون النهاية. اجتزنا الأول، فوجدنا أننا نواجه منزلقا أكثر حدة، نتأمل فيه، ونعد الدرجات واحدة واحدة، فنحمد الله على اجتيازنا لها، فنواجه منزلقا على شكل درجات صخرية دون حلقات، نثبت قدما في الأسفل، ونمسك بأيدينا صخرة أعلى منها، نحاول التوازن، فأي خطأ يؤدي بنا إلى الهاوية.

رآنا الحاج إبراهيم، واقترح علينا أن نتروى في المشي. فعلت أنا ذلك رغم صعوبته، أمّا أبو نهاد، فلم يعد بإمكانه اجتياز المنحدرات بسهولة. جمال يسير أمامه، فيتعكز عليه، وأنا أساعده من الخلف، وأبو ماهر حائر، ويود أن ينتهي ليدخن سيجارته.

في المنحدر الرابع، خارت قوى أبو نهاد، أمسك الدرج الحديدي بيديه، وبحث برجليه على درجات أخرى، صار معلقا، وسحل بنطاله. لم يكن هذا مهما، وكلنا حدث معه الشيء نفسه، نعدل من ثيابنا، نثبتها فوق خصورنا إن استطعنا، ونواصل المسار، إنه وقت اجتياز المنحدر الجديد. صخر طبيعي، شكلته عوامل التعرية، ثم درجات معدنية إلى اليمين، ثم بركة ماء في الأسفل. قضينا وقتا في مساعدته، لكننا وجدناه في بركة الماء. انتشلناه، فهي ليست عميقة، لكنها بللته حتى سرته، سرنا نحو منطقة الحصى، فسوى ملابسه، وتحدثنا قليلا حول

المسافة المتبقية، فالمهم أن نصل بأمان. لم نشعر بالأمان، وعلامات القلق في عينيه، وفي تعابير جسده.

"الجبل، الجبل". لم يكن ذلك ممكنا طيلة الوقت، فالأمر يصبح صعبا، والوادي أكثر صعوبة، والشمس على وشك المغيب. سرنا في سفح التلة، بملابس رطبة، وطلب جمال من أبو نهاد أن يلتصق به، فأمسك بيده حينا، وشدها حول رقبته حينا آخر، إلى أن طلب مني ومن أبو ماهر أن نظل بجانبه، لنجتاز ما تبقى.

أبو نهاد يلبس بدلته الرياضية الرمادية اللون، والجميلة، وتجعل منه أكثر أناقة، وحرية. وهو مثل معظمنا يلبس حذاء مشي عادي. لم أفطن إلى الأحذية إلا بعد حادثة تزحلقي، فبت أتأمل حتى في سلوكاتي اليومية.

اشتريت هذا الحذاء خصيصا للمشي، وتأكدت من البائع أنه لا يتزحلق، بأن جربه على البلاط الرطب، وبالفعل، كان مثل مكابح السيارة، يتوقف، ولا يتزحزح. فكيف تزحلقت، والتوت رجلي اليمين تحتي؟ دققت في حذاء أبو نهاد فكان مثل الذي أنتعله.

يبدو أنني حضرت بحذاء للمشي العادي، في الشوارع، والمسارات المستوية المبلطة، ففيه حزوز بسيطة، خفيفة، متقاربة، حزور طولية وعرضية، ومائلة، لتمنع الإنزلاق في أي اتجاه. لكني، وأنا أتكئ على العصي، وأنا متأكد من الحذاء الذي انتعله، فهو صناعة شركة عالمية، وجدت نفسي، قد وقعت، على إليتي، ورجلي اليمين تحتي. كان الألم شديدا. خشيت أن لا أستطيع النهوض، ولا إكمال المسار كما الآخرين.

لم يستغرق مني الأمر وقتا طويلا، حين تبينت أن الحزوز في أسفل الحذاء قد امتلأت بالطين، ولم يعد لها وظيفة، لقد غرقت بالطين تماما، وغرق النعل بالطين وبالحجارة الناعمة، فأصبح أكثر نعومة، وقابلا للزحلقة. فوجدت نفسي مكوما.

صحيح أنني نهضت بتشجيع من الحاج إبراهيم، لكن الخشية بقيت هي هي، وستبقى إلى أن ننتهى من هذا المسار.

يقف أبو نهاد على رأس التلة، بطوله، وببدلته الرياضية رمادية اللون. يتطلع في الأفق القريب، ويرى أضواء بيسان من تحته، وغيوم قد تشكلت في الجو، وضباب يغطي الأرض، تبرز منها الأضواء، وتظهر معالم المدينة. يقف ويشعل سيجارة، يتبعها بأخرى، ينزوي قليلا ليبول، ونحن لا نرى بعضنا جيّدا، يفكر هو الآخر كيف ينهض، وكيف يقطع الأمتار الباقية. لم يعد يمتلك القوة لفعل أي شيء، سلم أمره للذين حوله، وهم مثله متعبون، وقد سدت منافذ التفكير لديهم.

يأمره جمال، بأن يقفز، وهو يلبس ثيابا مبللة حتى وسطه، يود لو كان شابا، فيقفز هذه الأمتار المتبقية، من أعلى التلة إلى أسفلها. لو كان يحمل عصاه المعدنية، لفكر في سحل جسده على المنحدر الوعر من التلة، وأن لا يرجع للوادي، ولو كان ذلك ممكنا، لما رسموا طريق الخروج من أسفله، وليس من أعلاه، إنه مسار إجباري رسمه الخبراء. الوضع سيء. بلدته عمواس، ليس فيها هذه التضاريس، وأبو ماهر لا يخبر هذه المنطقة تماما. سمع عنها، لكنه لا يعرفها.

أبو ماهر، يود أن ينتهي هذا اليوم، ولا يكشف أحد سره، وسر رماد أبيه. يود أن ينتهي كل شيء، ولا يمكن أن تكون هناك معجزة. انتهى زمن المعجزات، ومن يكون هو حتى يتم إنقاذه. إنه مجرد زائر، قطع ساعات في الطائرة من أوروبا إلى الأردن، وقضى أكثر منها لعبور الجسر، وقضى نهارا كاملا في قريته

"زرعين"، وها هو معلق على طرف تلة. لم يتحدث كثيرا، سوى تدخله حين اتصل جمال بالشرطة، ليخبره أنه زائر.

أنا أقف مراقبا لما يحدث، ليس لي حول ولا قوة، والحاج إبراهيم ينادي علينا، أن ننزل إلى الوادي، ونقطع ما تبقى. وقعت في تناقض بين اتباع أوامر جمال الذي أمّر نفسه، وبين طلب الحاج. لم أشأ أن أتسبب بحرج لأي منهما. أرى نفسي عاجزا على اتخاذ قرار بسيط، بعد أن كاد جمال يتعارك مع مندوب الحاج.

لحظات انتظار، انتظار قرار الحاج إبراهيم، قرار جمال، قرار الشرطة، ومشاركتنا الباهتة في القرار.

فجأة، فإذا بأبو نهاد يصرخ بأعلى صوته: إنني أشعر بالبرد، جسمي يرتجف، لا أريد أن أموت هنا. أريد أن أموت بهدوء. لتأتي المروحية، ليأتي الشيطان، وينقذني من الموت. أنا أحب الحياة، أحب الحياة هنا، ولو كنت في قريتي عمواس، لقلت لكم: اتركوني هنا لأموت. كل منا يختار جنته، وجنتي ليست هنا، رغم جمالها. أريد أن أرجع إلى بيتي في القدس، وأموت هناك.

## حنان

لم أعرف أني سأزور بلدتها، أو سأكون على مشارفها، بيسان. كانت زميلتي في الجامعة، رشيقة الطول، والمحيا. كانت فتاة يبدو عليها العمق في التفكير، والابتسامة التي لا تفارق ثغرها. كنا نلتقي كثيرا في الكافتيريا، ليس فقط لتناول الطعام، بل لتناول قضايا مختلفة بالنقاش، في السياسة، وفي العمل الطلابي، وفي الحياة، وكانت تطلق بعض النكات خفيفة الظل، أشبه بالطفولية، مثل التي فركت عينها لترينا العين الحمراء، وأن يلف الفرد جسده، ليرينا عرض أكتافه، وأمثالهما. كنا نضحك كثيرا، حتى زادت ضحكاتنا حين أصبحنا أصدقاء مقربين، فظننت أني أحبها.

نعم، ظننت أن المسافات بيننا تقلصت، وكنت مترددا في طلب يدها مباشرة، لأنني لم أكن جاهزا بعد. لكني سألتها بحضور آخرين: ما هي صفات الرجل الذي سترتبطين به؟

- أن يعيدني إلى ثرى جدي.
- لا أن يحبك، وتحبينه؟
- الحب يأتي وحده، فهو ليس قرارا.
- كيف إذن؟

- هل تعتقد أننا بمعزل عن قرار أهالينا؟ هل نتزوج الذين نحبهم؟
- لا أفهم.
- عليك الاختيار أحيانا بين رضا الأهل ورضا قلبك.
- لا أفهم.
- الأفضل أن يتفق الاثنان.
- الحبيبان؟
- الأهل والحب.
- وإذا لم يتفقا؟
- اختار الأهل، وسيأتي الحب لاحقا.
- أعتقدت أنك مختلفة، وتفضلين الحبيب.
- دعنا نفكر بعقلانية، هل تتخلى عن أهلك مقابل حبيبك؟
- أظن نعم.
- أنا لست حرة تماما، ولا أنت. العواطف مهمة، وذكرياتها ستبقى، لكن علاقتك بالأهل علاقة دائمة. يكفي أن الهجرة قد فعلت فعلها، فتفرق أعمامي، وتحولنا إلى أسر محافظة، هل أخلع أهلي بعد هذا العمر؟ أأزيد من معاناتهم؟ أليس هذا درسا لنا جميعا؟ ألا ترى أن الخطر الخارجي يحولنا إلى أسر أكثر تراصا؟
- أمتأكدة أنت مما تقولينه؟
- ليس تماما.

- أأنت متشككة من إجابتك؟

القت نكتة على طريقتها، بأن أحدهم شك، فرأى نفسه دبوسا! هل تقصد أن نهاية علاقتنا مرتبطة برضا أهلها؟ وكيف أصل لهم، فلا هم يعرفونني، ولا أعرفهم؟ إجاباتها غامضة، تقول الشيء، وترمز لأشياء أخرى. لا أفهمها، أود لو أفهم قولها.

اعتقدت أن قولها مجرد مزحة، اذ كانت مبتسمة، وهادئة، لكنها واثقة من نفسها. تدخل أحد الزملاء، وسألها: وهل يعيدك إلى ثرى جدك حية أم ميتة؟ ابتسمت وقالت: لا فرق. عجبت، ومثلها يتحدث عن الموت كما يتحدث عن الحياة، ومثلها تجذبه كل من نظر نحوها، ورأى وجهها الطفولي، بعينين براقتين، وثغر جميل التقاطيع، وشعر يغطي معظم خديها، ولا يصل إلى الكتفين، فعنقها طويل، أبيض، يتمنى كل واحد أن يكون من نصيبه. هذه النظرات الهادئة الدقيقة، تمنع أي إنسان أن يتطاول في الحديث معها أكثر مما ينبغي.

وقفت، فكانت أعلى منا جميعا، وأطلت علينا ببشرتها البيضاء، وعينيها اللامعتين، وقالت: كل واحد على محاضرته، انتهى النقاش اليوم. أدارت لنا ظهرها، واحتارت نظراتنا لها، بين قوامها وعباراتها. كانت عباراتها بسيطة وعميقة. كلما تعرفت على أمثالها، أرى ما لا يقال، وما لا يحدث. كانت زميلة لنا تشبهها، تأتي إلينا واحدا واحدا، وتسلم علينا، وتسأل عن حالنا، وتوزع ابتسامات كثيرة، فقدناها مرة واحدة في مهمة وطنية. لم نصدق أنفسنا، ولم نصدق الحكاية، وظلت في بالنا طوال فترة دراستنا وبعدها. غابت عنا جسدا، ولم

تغب فكرا ولا عطاء. أخشى أن افتقد حنان في يوم من الأيام، فيكون ما سمعناه منها تعبيرا عن أشياء لا ندركها.

لم ينته النقاش معها بالنسبة لي، ففتحت معها لاحقا مواضيع عديدة، تتعلق ببلدتها، حتى كدت أعرف تفاصيلها، وما أدق تلك التفاصيل! تفاصيل الحنان، والفقد، والحياة.

كم وددت أن التقي بها وحدي، وددت أن نتحدث في الحياة، والمستقبل، والناس. وددت أن نتحدث عن علاقتنا، ونرسم لها طريقا، ونخطط معا، نتحدث في كل شيء، نبني أحلاما لنحققها مستقبلا. كانت دوما تسير برفقة زميلة لها، حتى ارتبط اسميهما معا. تحينت الفرص لملاقاتها، وكانتا مثل توأمين روحيا وجسديا، لا أدري لماذا، ولا أود أن أتدخل بينهما، لكني وصلت إلى نتيجة، أن سر الواحدة هو سر اثنتين، فأي كلمة سأقولها في غياب واحدة، ستجد من أذن الأخرى سباقة لالتقاطها.

غرمت بها، حتى لم أعد قادرا على الدراسة جيّدا، ولا النوم جيّدا، ورسمت صورتها في مخيلتي، أوضح وأجمل من كل الصبايا اللواتي رأيتهن. كتبت اسمها على دفاتري وكتبي، وكانت مرافقة لي في حل المعادلات، وفي قراءة نصوص كتبي. تملكتني، وأنا الخجول في مثل هذه الأمور. لم أمر بخبرة سابقة، وأنا من الأصول الفلاحية المحافظة. وددت أن ألتقي بها منفردا، وأقول لها عمّا أحس به. لا أعرف ماذا سأقول، فكلماتي قصيرة، وأعجب من هؤلاء الذي يقيمون علاقات عاطفية، ويتحدثون طويلا. ماذا يقولون؟ لن أتحدث كثيرا، سأقول لها: أحبك. دع الأرض تبتلعني بعدها، دع الكلمة تذيبني، وتنهي حياتي. لا أملك كلاما أكثر، يتهدج صوتي. أنا أعرف نفسي جيّدا.

مرة، كنت جالسا في المكتبة، أواظب على الدراسة، وحل الوظائف، فإذا بها تأتي قربي، وتسألني عن حل سؤال الوظيفة. ربما لم يكن غرضها الوظيفة، ففي

عينيها أشياء أخرى. استجمعت قواي وقلت: إني أحاول حلها. وقفت بجانبي قليلا، لم أقل شيئا آخر، ولم تقل هي. حين ذهبت، جاءني صديق كان على مقربة مني، وقال: ما الذي حدث معك؟ كنت أعرف أنك أنت الذي تجلس في هذا المقعد، وأنا أعرفك، وأميّز صوتك، لكن حين جاءت حنان وصديقتها، وسألتك، لم أتعرف إلى صوتك، كان صوتا مبحوحا، خجولا. ظننت في البداية أنك انتقلت إلى مقعد آخر. لم أجبه، فأضاف: ألا ترى وجهك! هل أحضر لك مرآة لتراه، إنه أحمر، يتدفق دما، إن عيونك انكمشت بين هذا اللون المتورد، وشفتاك ترتجفان. لم أجبه، ووجدت أن القلم انساب من بين أصابعي، والعرق قد بلل ثيابي. وودت أن يبتعد لأرتاح قليلا.

لم يخطر ببالي أن أقول لها سوى الكلمة الواحدة، لكني أعجز عن ذلك. أنا أتقن لغة الجسد ربما، لغة العيون، والتأمل في وجهها. بل أشعر بالخجل، وأغمض عينيّ، أو أجعل من الأرض جهة تركيزها. اعتقدت أن هذه اللغة كافية، لتبوح عمّا في داخلي. أرى آخرين يقولون، ويعيدون الكلام، ويختلقونه، ويضحكون، ويلقون النكات، وينتقلون في الحديث من صبية إلى أخرى. يتحدثون في كل شيء، كل شيء. أنا لا أستطيع.

أستطيع تأمل وجهها، حين أكون وحدي، أغلق غرفتي، أرتب الكتب أمامي على المكتب، وبدل أن أنشغل بالدراسة، استحضرها، وأحادثها، وأتمعن في تفاصيلها، وأسمعها. أشعر بالتعب، فاستلقي على السرير، وأغمض عيني، وأدقق في وجهها، أرى جماله، وجاذبيته، أحاول مصارحتها، فتقف الكلمات بين حبال

صوتي، أنهض مرة ثانية إلى المكتب، وأحاول تسجيل ما أود قوله، أكتب جملة، فأشطبها، لاختار غيرها، تمر ساعة، ساعتان، فأجد أنني لم أكتب شيئا. أخرج من الغرفة، أتمشى، وأعود إلى كتبي.

قالت لي زميلة مرة: كم أنت بريء. لم أعرف كيف أجيبها، ولم أعرف إن كانت تمدحني أم تذمني أم تحرضني على البوح. لتقل ما تريد، ولأعش حياتي كما أريد. هل أعرف ماذا أريد؟ ربما، أريد واحدة مثلي، بالبراءة التي يتقولونها عني، ونكون على سجيتنا، على فطرتنا.

كنت إذا التقيت بها، ابتسم، وتحمر وجنتاي، وأسمع ما تقوله أكثر مما أتحدث. كان الخجل يخف بوجود رفيقتها، فأنطلق أحيانا في بعض الحديث، خاصة في مواضيع عامة. سألتني مرة: ما صفات المرأة التي تود الارتباط بها؟ شعرت بالخجل كثيرا، ووجدت أنني أقول: واحدة تشبهك. ركزت عيني في الأرض خجلا، فإذا بها تقول: حين أجد واحدة مثلي، سأخبرك، وأعرفك إليها. وجدت نفسي محرجا من جديد، فهل ما قلته لها، كان كافيا للتعبير عن حبي لها؟ وهل ما قالته كان حاسما، للبعد عنها أو الاقتراب منها؟ ليلتها، لم أنم، ولم أستطع حل وظائفي، وأنا أحاول تحليل جملتها غير الواضحة.

جاء صديقي، هو نفسه الذي لاحظني في المكتبة، فوجدتها فرصة لأطلب مشورته. سردت عليه ما حدث، وسألته عن رأيه. ابتسم، وبما يشبه المزاح، أو هكذا ظننت، حين قال: يعني تقول لك: حل عني.

غضبت، وطردته من غرفتي، ولم أنم.

حين رأيتها في اليوم التالي، كنت أشعر بالخجل، لكنها كعادتها، كانت مبتسمة، واثقة من نفسها. حاولت أن أعيد توازني، ولا أعرف إن استطعت ذلك. بلعت ارتباكي، وجف حلقي.

سألتها: لماذا لا تطلبين تصريحا لك ولأهلك، لزيارة بلدتك؟

قالت: ليس لدي أقارب هناك، فأنت تعرف أن مدينتنا قرب النهر، وكان جسر قريب يربط بين الضفتين. حين هوجمت المدينة، تركوا جهة الشرق مفتوحة، هاجر أهلنا منها، هاجر معظم أهلها منها شرقا. لم يعد لي أقارب هناك، إننا نعيش على الذكرى.

- ألم تري مدينتك أبدا؟
- ليس تماما. كنا في رحلة مرة أنا وأهلي، قرب النهر رغم أنها منطقة أمنية لا يسمح بالاقتراب منها، وكان ضباب كثيف يغطيها. فقط رأيت موقعها، لكني لم أرها واضحة، وظلت ظلالها ضبابية.
- ألهذه الدرجة أنت متعلقة بمدينتك، رغم أنك لم تعيشي فيها، ولم تريها؟
- وأكثر. إننا نعيش في غربة، رغم أننا في دولة عربية. هذه الدولة لا تمنحنا الجنسية، وأحس بغربتي كلما التقيت بأمثالي من فلسطين ومن غيرها. مواطنو الدولة أيضا يشعرونني أني لست منهم، وأنا لست منهم فعلا.
- هل من طريقة للوصول إليها؟

صمتت، بإجابة غير واضحة. اقتربت مني أكثر، وكدت أرتبك عاطفيا، لكن لهجتها أصبحت أكثر جدية، ولم أعد أفرق إن كانت التي بجانبي حنان أم غيرها، لم تعد كذلك، ولم تكن مهيئة لإلقاء نكتة كما عادتها، وتحول بريق عينيها وتورد

خديها، إلى ملامح أكثر جدية. غابت مشاعري، دققت في عينيها، وشفتيها اللتين غابت عنهما الابتسامة. قالت: اسمعني جيّدا .. أهلي يعيشون هناك، في بيسان، رغم آلاف الكيلومترات عنها. الصور المعلقة هي للمدينة، وأهلها، وجدي، وأعمامي. أثاث بيتنا لونه أخضر، كما لون مدينتنا. لا تمر لحظة دون أن أشعر بهويتي. فكرت مرة أن التحق بمجموعة وأستقل طائرة، وأهدده ليهبط في بيسان. طرحت الفكرة على أمي، ونقلت الخبر لأبي. جاءني بهدوء، وقال: لو كان ذلك ممكنا لقمت أنا بذلك. إنهم يهبطون بعيدا عنها. مدينتنا ليس فيها مطار. انسي الفكرة هذه. دعنا نحمل مدينتنا معنا، كما نفعل إلى أن يفرجها الله.

لم أناقشها فيما طرحته، ظللت صامتا، فاقتربت مني أكثر، وبما يشبه الهمس، قالت: نحن كغيرنا نود أن نعود إلى مدينتنا، ونعيش بين ربوعها، فكرت أن أنضم لحركات المنظمة، لكنهم يطرحون اسم أريحا، وحين يقولون شبرا شبرا، يشيرون لمدن الضفة، أما بيسان، فتسمع اسمها في الأغاني، وفي أسماء بعض البنات. إنهم يريدونها ذكرى. وهل رام الله والقدس أهم من بيسان؟

لم أجبها، لكني بدأت أتفهمها.

حضّرت الكاميرا، فمسحت الصور القديمة، وشحنت بطاريتها، وأخذت شاحنا احتياطيا، فالمشوار طويل، ومتعدد، من بيت حنينا والمسجد، ثم عمواس، حيث سنتناول الفطور، ومنها إلى الخضيرة حيث نستريح قليلا، إلى زرعين، فعين جالوت، فجبال فقوعة، فبيسان. رحلة طويلة تستغرقنا ساعات، وأنا أحب أن أرسم طريقي بالتقاط الصور. تغريني بعض المناظر، فأخزنها في ذاكرة الكاميرا، وخاصة السهول التي نمر قربها.

في كل مرة أشعر أن هذا هو المسار الأول، لأروح أتعرف على المواقع والقرى المهدمة. ألجأ إلى تشغيل برنامج خرائط، وهو يصف حركتنا من موقع إلى آخر، ويكتب أسامي المناطق واحدة واحدة، تشوهها أسماء المستعمرات التي لا أحفظ معظمها، ولا أعترف بوجودها. أتعرف على القرى المجاورة للشارع، فهذه قرية أمي، وهذه قرية أبي، وهذه قرية أصدقائي، وهذه قرية أنسبائي. كل موقع قرية نمر قربه، أعرف واحدا منه على الأقل يسكن رام الله أو قراها أو مخيماتها، وكثيرا ما التقطت صورا، لأهديها لأحدهم. أتردد كثيرا في التقاط الصور، إذ أود أن احتفظ بمساحة لمواقع قد تكون أكثر أهمية، فالموقع الواحد يحتاج أحيانا إلى أكثر من صورة، والصورة يمكن التقاطها من عدة زوايا، كل واحدة منها جميلة. هذه المرة أود أن أحتفظ بمساحة فيها لصور بيسان، وبيت حنان، التي وعدتها بناء على طلبها.

قليلة هي الصور التي ألتقطها للزملاء، أو لي شخصيا. لا أهتم بذلك إلا للضرورة، بينما هناك من يسجل المسار بأهله. أنا أهتم بالمكان، حتى أن وجود الزملاء يعطل عليّ التقاط صور المكان، أحيانا أطلب منهم أن يبتعدوا، أو أسبقهم إليه، أو أنتظر حتى يذهبون. سألني يومها الحاج إبراهيم: لماذا لا تصوّر المجموعة؟ شعرت بالحرج، وكأنه يطلب ذلك مني، فأجبته، بأني أحب الطبيعة، وما تبقى منا في هذه البلاد، وكما ترى فإني أعرضها أمام الناس جميعا، وبعضهم أعاد نشرها باعتبارها مهمة. فعلت ذلك في كل موقع زرته، وبوبتها تحت أسمائها، وصارت مرجعا لي على الأقل.

في هذه المرة، أود أن أفتح ملفا لمدينة بيسان، قرأت عنها، عن تاريخها، واستعرضت كثيرا من الصور خاصة على موقع "فلسطين في الذاكرة". هم يهتمون أيضا بالمكان، لكن يبدو أن المصورين ليسوا من أهالي المدينة، فهناك إعلان فوق الصورة لمساعدتهم على تحديد أسماء الأماكن والأشخاص إن وجدوا، وأجد أن العناوين متشابهة "منظر في بيسان"، ليس أكثر. ربما كان هذا السبب لطلب حنان مني أن أبحث عن بيتهم، وألتقط صورا له، بيت الحاج خليل.

سأفعل، سأحاول تصوير كل زاوية، كل حجر، كل مدخل، كل نافذة، أدور حول البيت، وأصوره من جهاته المختلفة، وإن استطعت الدخول، سأصور كل غرفة، وكل جدار، وسأبحث عن موقع صورة جدها وأبنائه وأحفاده، وأبحث عن ظلالها على الحائط. هذا كان طلبها، وسأفعل، هي ترى ظلها في ظلال الصورة،

وستورثها لأحفادها كما قالت. فالعيش مع الظلال أفضل من دونه. أسأل الله أن أتمكن من ذلك، وأحقق لها هدفها.

على الحاجز، في قلنديا، لم يسمحوا لنا بالمرور قبل الثامنة صباحا، فانتظرنا ما يقرب نصف الساعة. تجولت في الساحة قبل الوصول للأجهزة الإلكترونية، فإذا بجندي يصرخ: وين رايح؟

- انتظر الساعة الثامنة.
- من قال لك أن تأتي مبكرا؟
- أنتم.
- ألحين في احنا وانتم؟ (عرفت أنه بدوي)
- طول عمرنا.
- بمنعك تدخل إذا زدتها.
- لا تستطيع إلا أمنيا، أنا دافع ثمن البطاقة الممغنطة، وجاي هون قانوني، وأستطيع الدخول حسب القوانين.
- لن تمر قبل الثامنة.
- ها أنا أنتظر، باقي عشر دقائق.
- طيب تعال، هالمرة بدي أمرقك، تعال من هذا المسرب.

لم أشأ أن أجادله، ولم يشأ أن يجادلني، وسلكت طريقي. لم أكن مشتركا في الشبكة العنكبوتية على الهاتف، وإلا لأرسلت لها رسالة تفيد بموقعي، واجتيازي للحاجز الأول.

في الحافلة وراء الحاجز، كان عدد الحضور قليلا، وكان السائق قد شغّل مسجلة السيارة على أغاني فيروز، فإذا بامرأة منقبة تصرخ بالسائق: أغلق المذياع.

تطلع السائق نحوها قليلا، ثم تغاضى عن وجودها. أسرعتْ نحوه، إلى المقدمة: قلت لك: أغلق المذياع.

- لن أغلقه.
- هذه الحافلة لنا، وليست لك.
- إذا مش عاجبك انزلي.

نزلت، وراحت تشكوه لمسؤول الحافلات. تحدث مع السائق، وادعى السائق أن المسجلة له، وصوتها منخفض، وهي حرة أن تبقى أو تستقل حافلة أخرى. قالت: لماذا لا تفتح المذياع على القرآن؟

- سيعترض آخرون.
- من هم الآخرون الذين سيعترضون؟ أرني واحدا منهم.
- اسمعي يا أخت، نحن شعب فيه من اليمين إلى اليسار، حتى بعض الشيوخ يعترضون، لأن القرآن يقرأ ليسمع، والحافلة ستتوقف أكثر من عشرين مرة، وستكون مكتظة، وسيستغرق الناس بأحاديثهم الخاصة، يعني أنت تسيئين للقرآن بهذه الطريقة، كما يفعلون في بيوت العزاء.
- وهل القرآن هو لبيوت العزاء؟

- لا، أنا مؤمن ربما أكثر منك. أنا أحب أن استمع لفيروز في هذا الوقت، وأنت لست مجبرة على ذلك.

عادت إلى مقعدها، وبدأت بسماع القرآن من هاتفها، وصوت فيروز يصلنا: بكتب اسمك يا حبيبي. فتخيلت حين كنت أكتب اسمها في صفحات كتابي. كنت أكتبه متشابكا مع اسمي، تفننت في ذلك، فجعلت اسمي حاضنا لاسمها، وأحيانا بالعكس. حنان ليست بهذه الجرأة والتحفز لقتال، بل هي واضحة وهادئة، وإن كنت أود أن تحمل كلماتها معاني تريحني، لكننا ربما كتبنا أسامينا عميقا على الرمال، ومحتها الرياح والمياه، وربما محاها الزمن.

كنت أسير في الممر أمام المكتبة، فإذا بصديقتها وحدها. فرحت، وحاولت تجاوزها والبحث عن حنان، فهي الأخرى وحدها، ربما أستطيع التحدث معها. ستظل تحدثني عن بيسان، وأنا سأسمعها، لكنها ستنظر في عينيَّ وتقرأ ما لم أستطع قوله. ستلاحظ ارتباكي وخجلي، وستصلها الرسالة التي كتبتها أكثر من مرة. سأحاول الوقوف دون أن أرتجف، ولا تفوح رائحة عرقي، ولا تلاحظ آثاره على وجهي، وباقي جسدي. لكن صديقتها، أوقفتني، وسألت عن حالي، ولم أعرف أن أجيبها، فكل ما سأقوله لها، ستنقله لحنان، فكيف لا أشعر بوجودها حتى وإن غابت. الأمر يختلف لو كانتا معا.

قالت: أعرف أنك تحبها، تعشقها. هذا لن يغير شيئا. حنان تنتمي لعائلة ممتدة متماسكة. يعتقد أبوها، أن النكبة قد شردت أهلها، وهو لا يريد أن يفقد أيّا منها. هو لا يود تغريب بناته، لا يود أن يتوزع أحفاده. لا يود أن يعيش على أمل جمع الظلال. أنت مجرد ظل، ربما تساعدهم، لكنك لست جزءا من الصورة. هذا لا يعني بأنك غير مناسب، بل لأنهم رسموا صورة لحياتهم من قبل وضاعت، ولا يودون أن يفتتوها. كل منهم يعمل على جمع العائلة من جديد، أحدهم يبحث عن صورة تركها هناك، وآخر يبحث عن آخر، سافر ليتعلم ولم يعد بعد. لا تنس أنهم يعيشون في صحراء العرب، وما زالت صورة الرمال المتحركة في بالهم. تهب الرياح من كل الاتجاهات، فيخشون الطيران والحط في أماكن أخرى لا يعلمونها.

حنان مريضة، هو نفس مرض أهلها، يعيشون على أحلام مدينتهم وظلالها. أخشى عليك منها. لا تتعلق بها أكثر من ذلك. عش على أمل اللقاء بها، وارسمها لوحة جميلة في دماغك، اجعلها جزءا من أحلامك الرومانسية. هذا ليس خيارها، هو خيار جماعي إلى أن يشاء الله.

ما الذي يدفعني بعد هذا العمر للبحث عن بيتها؟

هي جدة مثلي، تواصلت معها عبر الإنترنت، وسألتها إن كانت تذكرني. فسألتني هي الأخرى: هل زرت بيتنا في بيسان؟

غبت عنها عقودا، وغابت هي الأخرى. سألت عنها كل من قابلته، ولم يعرفها. بحثت في الشبكة العنكبوتية، فوجدت اسمها. دققت في الصورة علني أتعرف عليها. كانت هي وإن اختلفت الملامح كثيرا. شابت مثلي، وأرفقت صورة جماعية وحيدة، فيها كبير العائلة، والأبناء والأحفاد، تشبه الصورة التي تركها جدها معلقة على الحائط، وفيها صورة أبيها، وأعمامها، لكنهم هذه المرة وقوفا. دققت في الصورة لأتبين موقعها. من الصعب معرفة ذلك، فالصورة التقطت ليلا، فبعض مصابيح الضوء تظهر فيها، حتى أنها تشوش على ملامحهم، ويبدو أنها ليست هناك، ربما هي التي التقطت الصورة، أمام بيت قديم، بين شجرتي صفصاف، كانت أياديهم نحو الأرض، أو في اتجاهات مختلفة لأعرف أنها حديثة. حاولت أن أبحث عن ظلها، لم أره، وظل متخيلا.

أما صورتها وحدها، فكانت في حديقة بيتها، عرفتها من عنقها الطويل، لكنها لم تعد تسدل شعرها على كتفها، بل ربطته "ذنبة فرس"، فبانت جبهتها أوسع مما تخيلت، وتبينت ابتسامتها التي أعرفها، وعينيها البراقتين اللتين لم تعودا كذلك تماما. تلبس بلوزة مخططة بألوان متعددة، درجات الأزرق والأخضر، بياقة حادة على شكل رقم سبعة، على طرف مجرى صدرها. وفي الخلفية تظهر شجرة

المورنجا بأوراقها الصغيرة، وشجرة المجنونة المتسلقة بألوان بين الأخضر والأحمر، أما المقعد فكان بألوان الورد على قاعدة خمرية.

طلبت صداقتها، فاستجابت. كتبت لها رسالة: كيف حالك؟ فأجابت: هل زرت بيتنا في بيسان؟ وانتهى الحديث، باعتبار أن هذا التزام يجب القيام به، وممكن أن نتواصل بعدها.

لا أعرف لماذا أعدت الاتصال بها، فهل هو لتأكيد هويتي التي هي جزء منها؟ هل هو لإثبات أنها ما زالت في ذاكرتي؟ وماذا يعني ذلك، فكل منا ذهب في طريق؟ إذن، لماذا أنا مهتم بتلبية طلبها، وزيارة بيت أهلها؟ لا أعرف، ربما لأنني أعيش في الداخل، وهي اليوم تطلب مني هذا الطلب كصديق، وهي الكلمة التي قالتها، حين عرضت عليها الزواج، قالت: نحن أصدقاء، وسنظل كذلك. لم نظل، بل أعدنا التواصل من جديد، رغم أن هذه الصداقة مرتبطة بإحساسي وقتها، وببقاياه هذا اليوم. علاقتنا اليوم هي ظلال صداقة، ظلال محبة.

دائما ما يصل جمال قبل الآخرين، لكن إذا وصل متأخرا قليلا، يدور بين الحاضرين ليسلم عليهم، ويطمئن من الذين حضروا حول طريقهم، ويروح يمدح أهمية المسارات، ويؤكد أن الحاج إبراهيم، سيظل في خدمتنا، وفي ترويحنا، وفي إصراره أن نزور كل مناطق فلسطين.

- يا شباب لا تذهبوا بعيدا، ظلوا في المنطقة، سننطلق بعد قليل، بعد وصول الحاج إبراهيم. سيصلنا خلال عشر دقائق.
- يا جمال، ما في مراحيض، بدنا ندبر حالنا قبل السفر. المسجد مغلق.
- دبروا حالكم.
- أين؟ المدرسة أغلقت أسوارها، ولم يعد هناك ورشات بناء، امتلأت المنطقة بالعمارات.
- دبروا حالكم وراء الحافلة إذا.
- كلها مكشوفة يا جمال.
- أنا الآن مشغول بالفريق، وبانتظار الحاج إبراهيم، كل واحد يدبر حاله على عاتقه.

تسلق البعض سور المسجد، أو ألطى بجانب سور المدرسة، ودبر حاله.

- هل تعلمون بأن الشرطة ستخالفكم، لو رأتكم في هذا الوضع؟
- وقتها، سنقول لهم، أنك أنت الذي طلبت منا أن ندبر حالنا، ودبرنا حالنا.

لم يكن الوقت مناسبا لأسأله عن بيت حنان وأهلها، وصممت أن أتحين الفرص، عله يعرف تلك المنطقة أكثر مني.

جاء الحاج إبراهيم وسلم علينا واحدا واحدا، بالقبل وبالأحضان: أهلا عمي الحاج إبراهيم. "يا سلام ما أحلاكم! وما أحلى مسار اليوم إلى زرعين وجبال فقوعة"!، "خلينا نليّن عضلاتنا على المزبوط". همست في أذن الحاج إبراهيم: أوصتني صديقتي القديمة، أن أزور بيتها في بيسان، وألتقط بعض الصور. "إن شاء الله عمي، إذا صار في وقت، ربما نستطيع ذلك في وقت آخر"، قول: يا رب"، "يا رب".

ابتعد قليلا، وعاد: قلت صديقتك القديمة؟

- نعم عمي الحاج إبراهيم.
- لكنها قديمة.
- اللي ما له خير في قديمه، ما له خير في جديده.
- هل تعرف بيتهم جيّدا؟
- لم أزره من قبل، إنه بيت من طابقين، حجارته سوداء، نوافذه كلها أقواس بيضاء، في الطابق الأول أنصاف دائرة مكتملة، وفي الثاني شرفة بأقواس علوية. مدخله قوس مقام على عمودين رخاميين، تحسبه قصرا من الخارج، لكنه كان ملكا لعائلة ممتدة كاملة، يعيش فيه حوالي ست أسر، الجد والأبناء والأحفاد. بيت الدرج داخلي، مقابل البوابة الرئيسة، يفضي إلى ممرين يمينا وشمالا. إنه بالقرب من جامع الأربعين ذي الحجارة السوداء أيضا، حتى أن بعض أقواسه تشبه أقواس بيتهم، ذي المئذنة

المقطوعة. بيتهم يشبه سرايا بيسان مصغرا، لكنه ليس سجنا. البيت مزنر بحجارة بيضاء بين الطابقين، وعند مدخل البوابة، في أعلاها "الغالق"، الذي يمسك القوس من الجهتين. الغالق عريض نوعا ما، بارز إلى الأمام، وفوقه لوحة حجرية، نقش فيها اسم صاحب البيت "الحاج خليل الزرعيني". أصله من زرعين، تحسنت أوضاعه المالية، فقرر العمل في التجارة، وانتقل إلى بيسان، بالقرب من محطة قطار بيسان الحجازية، التي كانت تصل بين دمشق ودرعا والحجاز.

- وهل تعرف تاريخ بيسان لتتحدث عنها أمام الفريق؟
- ليس تماما. أخشى أن أتحدث عن صديقتي أكثر من المدينة، لكني أعرف أن اسمها يعود للإله "شان"، أو بيت السكون والسكينة، يعود تاريخها إلى أربعة آلاف عام قبل الميلاد. غنت فيروز لها أغنيتها المعروفة "كانت لنا بيارة جميلة، وضيعة ظليلة، ينام في أفيائها نيسان، ضيعتنا كان اسمها بيسان"
- وهل يعيش أبوها في الخارج؟
- نعم، وقتل جدها على مدخل البيت في العام 1948، دفنوه في ساحة البيت، ولا يعرفون إن ظل أم لا.
- هل تريد زيارة القبر أم البيت؟
- القبر. أقرأ عليه الفاتحة.
- وهل القبور بين الدور كما في بعض مدننا وقرانا؟

- يبدو ذلك. لم يكن لديهم وقت لنقل جثمانه إلى المقبرة.
- هل فعلوا ذلك بشكل سري؟
- يبدو ذلك. المهم أن نجد البيت يا حاج.
- أستطيع تقريبا معرفة البيت، لكن أن تجد القبر، فهذا مستحيل.
- هل نستطيع زيارة البيت اليوم؟
- على الأغلب لا، لكننا سنذهب هناك الأسبوع القادم، إذا أمد الله في عمرنا.

أخبرتني حنان، بأن هناك صورة تجمع العائلة معا، بمساحة متر مربع، كانت معلقة في صدر البيت في الطابق الأرضي، يراها كل داخل إليه، في الصورة كبير العائلة الجد الحاج خليل الزرعيني، يلبس الدماية المقلمة طوليا باللونين الرمادي والأبيض، وفوقها المعطف الطويل باللون الرمادي الفاتح، يضع على رأسه طربوشا تركيا باللون الخمري، يضع يديه على ركبتيه، منتصب الجذع، تبدو رقبته طويلة، بحاجبين كثين، وشاربين ينزلقان حول فمه. تجلس بجانبه زوجته بثوبها المطرز كثيرا، وبسترة تغطي الثوب، وبشال أبيض يغطي رأسها، وبردانين مزمومين حول يديها اللتين تغطيان وسطها، تقف في منتصف الصورة بنتاهما، فارعتا الرأس، وبثياب تقليدية، بينما يقف على جانبيها أخواها يلبسان بدلات حديثة، ويقف على أحد جوانب الصورة أبو حنان، الأصغر بينهما، وعلى جانبي الحاج خليل، يجلس ابنهما الكبير وزوجته، وثلاثة من أحفاده واقفين.

هذه الصورة تعود إلى العام 1944، حيث كان عمر أبو حنان عشر سنوات، تزوج في منتصف الخمسينيات، وأنجب حنان بعد سنة.

تود حنان أن تتأكد من مصير الصورة، قالت: ربما تجدها هناك، فربما وجودها لا يضرهم، وربما نقلوها إلى متحف في المدينة، أو في مكان قريب، وربما نقلوها إلى الأرشيف.

حنان تصر على أن ظلال الصورة ما زالت هناك، وأنت داخل إلى البيت، مقابل المدخل مباشرة، فالصورة تحافظ على لون الحجارة تحتها، كما لو كانت هناك. ربما لا ترى هذه الآثار بالعين المجردة ببساطة، فالتركيز مهم في هذه الحالة.

سألتها: وما أهمية البحث عن ظلال يا حنان؟

- وجود الظلال يؤكد أننا ما زلنا هناك.
- وماذا بعد حنان؟
- فقط أود التأكد من وجود ظلالنا، ورائحتنا، فبمجرد دخولك ستعرف أن البيت لنا، وليس لهم.

لم أجبها. تفهمت شعورها، وتفهمت نفسي أكثر. فالظلال لها معنى. سألتها: ألست أنت ظلا لجدك، وها أنت أمامي؟

- صحيح، لكني لست هناك، أود أن أراها.
- ماذا سأفعل لو وجدتها؟
- التقط لها صورا بدقة عالية. سأطوف بها بين أقاربي، وأهلي، وناسي. هذا دليل على وجودي هناك، حتى لو لم أولد في ذلك البيت، ولم أره.
- وماذا بعد يا حنان؟
- سيرى أطفالي وأحفادي الصورة، وستحفر ظلالها في مخيلتهم.

صمتت مرة أخرى، وظلت ظلال الكلمات في ذهني.

انطلقت الحافلة كالعادة، دعاء السفر، آيات من الذكر الحكيم، وموعظة حول التعلق بالله الواحد الآحد، لا الشهوات ولا الناس. وراح جمال يقرأ شيئا عن بيسان. قرأ ما استطاع مما وفرته الموسوعة الإلكترونية.

غسّان، طويل، أصلع مقدمة الرأس، بعينين كعيون النسر، يدور من أول الحافلة إلى آخرها، لا يستمع للدروس دائما، وهو الشاب الذي يحلو له التجوال في المعمورة، فهو يرى أبعد من قريته، وإن كان يحبها أكثر.

صوت الأرغول، "يا ظريف الطول يا ظريف الطول يا محلا نغمات المجوز واليرغول، اصبر يا قلبي وآخرتك تنول، شيل أحبابي، لوين أحبابنا". نغمات اليرغول تطغى على المعاني والكلمات، "ظريف الطول يا طلق ريحان، يا ظريف الطول يا أولاد عمي، يا ظريف الطول يا أبو شامة، يا ظريف الطول يا محلا طولك، يا صوتك ونسني، لا توطي لأطولك، من هون لهون، ..الخ". "جفرا يا هالربع جفرا جفراوية، ضرب الخناجر ولا حكم النذل فيي، كرمال عيون الحلو غنينا النشمية، على دلعونا على دلعونا، يا ما تدلعنا، وحنان مش هونا". أصر غسّان أن يرقص، وأن يشجع الفريق على التصفيق له، ونادى الحاج إبراهيم ليشكلا ثنائيا، يسعى بين أول الحافلة وآخرها.

امتدت الأغنية ربع ساعة قطعنا فيها المسافة، بين قرى لفتا على اليسار، و قرى بيت اكسا وبيت سوريك على اليمين، بيت نقوبا، أبو غوش، ساريس، دير اللطرون، فعمواس. جمزو ودانيال، فالحديثة، فبيت نبالا، فدير طريف، فالطيرة،

فمجدل الصادق، في الطريق الذي يسمونه قاطع إسرائيل من جنوبها إلى شمالها، أخذ في تعبيده آثار قرى وبقاياها، وأراض زراعية.

مررنا ببيسان، ونحن في الحافلة. حاولت تبين معالمها، كانت بيوتا جديدة أشبه بالفلل، وطرقا حديثة، وأشجار. ها أنا أرى الآن بقايا مبان قديمة، بيوت مهدمة الجدران، وبقايا محطة القطار، تبدو على طرف المدينة. شاهدت بقايا آثار رومانية، بما فيها مدرج وأعمدة سقطت أرضا. حاولت أن أتبين بيت الحاج خليل، لكني لم أعثر عليه، والحافلة تسير بهذه السرعة، فالهدف ليس المدينة، وإنما جبال فقوعة.

شاهدت مساحة خالية، أشبه بتلة صغيرة جدا، ترابها أسمر، مخلوط ببعض الحجارة السوداء أيضا. ما لفت نظري هو هذه الشجرة الجافة في منتصف الحديقة المسماة "الوطنية". لا أدري إن كانت هي بقايا أشجار بيسان منذ كانت بيسان، أم أنها لوحة فنية، فهي تقف وحيدة على رأس التلة. حاولت أن أقرأ اللوحة، ونحن نلتف حول الدائري. إنها تشبه إنسانا يقف على رجل واحدة، أو رجلين متلاصقتين. قامة الإنسان طويلة، يبرز منه بطنه إلى الخارج قليلا، ورأسه يغوص بين يدين، اليمنى مقطوعة، وتفرد نفسها على امتداها، أما اليسرى، فيظهر منها تفرعين عند الكوع، واحد منهما يرتفع إلى أعلى، إلى السماء، والثاني يعود إلى الخلف، بانحناء بسيط إلى أسفل. يظهر ساق الشجرة الجافة، وقد تآكل عند القدمين، وعند الركبتين، أما عند الصدر، فيظهر نتوء إلى الأمام، كما القلب الذي ينبض. تظهر الشجرة من أي جانب، فوق مستوى المباني، يتقاطع مع الأفق، مع السماء.

حاولت أن ألتقط صورة للوحة، لكنها ضاعت مع سرعة الحافلة، وظلت صورتها مرسومة في بالي، لأبحث عنها لاحقا في الشبكة العنكبوتية. لم أستطع قراءتها جيدا، وظلت الصورة متناقضة، بين كونها صنع الطبيعة، وانجاز فنان لا أعرف مقصده. قررت أن أكتب كل ذلك لحنان، حين أتواصل معها، علها تساعدني وأساعدها.

توجهنا بالحافلة إلى عين جالوت، تأتيها من الجهة الشمالية، تلك الجهة التي أبقى عليها القائد قطز مفتوحة لكي يهرب من يشاء من المغول، حيث حاصروهم من الجهات الثلاث، وأبقى على المقدمة بقيادة الظاهر بيبرس، لتوقع الأعداء في الفخ، فالجهات الثلاث محاصرة بالتلال، استدرجهم ليطبقوا عليهم من الجهات كلها.

هي حديقة كبيرة، فيها أشجار النخيل، والحور، والصنوبريات الجميلة، والزيتون، والدفلى، والعيون تتدفق من عروق الصخر الملاصق للتلال، وفيها قنوات تسقي الأعشاب على جوانب الطرق، وفيها ساحة كبيرة لسباق الخيول، وفيها ساحة للمعارض الزراعية منها خاصة.

حين بدأ جمال، بالتعريف بالعين، وينابيعها، طلبوا منا أن نتوقف بعيدا عن البوابة. نزل الحاج إبراهيم وزميلان. غابوا عشر دقائق، فإذا بهم يعودون، ويخبروننا بأن ليس لنا نصيب بزيارة هذه الحدائق الجميلة، وهذه الينابيع المتعددة، برك مياه، وأسماك، خاصة تلك التي تدغدغ الأقدام، وهي تقضم اللحم الميت في أسفلها. وهناك مناطق ألعاب للأطفال. يبدو أن العرب يزورنها كثيرا، بان ذلك من ملابسهم، خاصة النساء وهن يسترن شعورهن، ومن رائحة الشوي في أطراف الحديقة. قالوا بأنهم طلبوا منهم أربعين شاقلا على الفرد الواحد، ولم يراعوا كبار السن. لم ندفع، وصاح أبو نهاد: الله أكبر، طلبت منكم مازحا أن تدفعوا دخولية لقرية عمواس قبل ساعات، وها هم يطلبون منا أن ندفعها لهم في

مدخل هذه العيون. تخيلوا أن ندفع دخولية لنرى طبيعة بلادنا، ونستمتع بها. لن ندخل. سمعت عن رجال يعملون في أراضيهم، ويتقاضون أجرا، هذه مذلة، وهنا يطلبون أن ندفع لهم!

حاولنا أن نسترق النظر بقدر الإمكان، قبل أن تدور الحافلة. كانت جميلة، وصوت المياه يترقرق من جوانب عديدة. كانت جميلة، وقال غسّان: بلادنا جميلة أصلا، ووضعوا عليها لمسات فنية، لتبدو أجمل. إن لمساتهم شوهت الطبيعة، وهل هناك أجمل من الطبيعة؟ وها هم يمنعونها علينا.

ترددت بنيتي أن أخبر حنان بما جرى، وبت مشغولا ببيت جدها الحاج خليل، فربما حولوه لمتحف عام، وربما يطلبون منا دخولية لزيارته. توقعت أن يحدث ذلك، وألتقط صورا للبيت من الخارج، لكن هذه الصور منشورة على الشبكة العنكبوتية، فما الذي أستطيع تقديمه لحنان؟

حين بدأنا المسار حوالي الساعة الرابعة من أعلى التلة، من مزرعة المراوح، ونظرت شرقا، اعتقدت أن المسافة قصيرة، فربما نقطعها في ساعة، إذ رأيت أطراف المزارع ما بعد التل بألوانها المختلفة، والشمس تغيب الساعة السادسة إلا ربع، بمعنى أنه سيتبقى معنا نصف ساعة على الأقل، نتجول فيها في المدينة. حينها أكون قد شاركت في المسار، واكتشفت بيت الحاج خليل الزرعيني.

أعاقنا أكثر من عامل في الوصول قبل السادسة، منها الإستراحات بين وقت وآخر في انتظار كبار السن، ومعظمنا كبار في السن، ورغبة بعض أعضاء الفريق في جمع بعض النباتات القابلة للأكل مثل الشومر والزعتر والفطر. لكن ما حدث معي يا حنان مختلف، مختلف جدا. الحادث الأول، هو حين تزحلقت على طرف صخر، بين الطين والصخر، بين العشب والماء، فإذا بي ملتصق بالأرض، والعصا التي أحملها كسرت، ورجلي اليمين تحتي تماما. هي أجزاء من الثانية، فإذا بي كذلك. هرع أعضاء الفريق ومنهم الحاج إبراهيم يطمئنون عليّ. أخبرتهم أني بخير، ولم أكن كذلك. أمسكوا بي ليساعدوني على الوقوف، فكابرت على نفسي، وقلت لهم بأني سأتولي أمري بنفسي. ظلوا حولي، والحاج إبراهيم يطلب منهم أن يدعوني أقف وحدي. فعلت، وقفت. سألني إن كنت أستطيع المشي. أجبته بنعم. وكانت نعم، لكن الألم كان شديدا، وتوقفت حدته. كنت أحاول المشي لأكتشف مدى الضرر الذي أصابني، صرت أكثر حرصا في اختيار مواقع قدميّ، وعرفت أن ما حدث ليس كسرا، بل ربما تمزق عضلات، أو

انزلاق غضاريف قدمي، أو تمزق أوتار. مرت أكثر من نصف ساعة، وأنا على هذا الحال، محاولا أن أتبع خطوات من هم أمامي، فإذا بجمال، وهو لا يعرف تماما عن حالتي، يطلب مني أن أتبعه، وأساعده وهو يهتم بأمر أبو نهاد.

الأمر الأكثر تأثيرا، كان المأزق الذي وقع فيها أربعتنا: أنا وجمال وأبو نهاد وأبو ماهر، حين وجدنا أنفسنا على رأس التلة، دون مخرج، ودون قدرة على اتخاذ القرار، أغشي على عيوننا، ولم نعد قادرين على اتخاذ قرار ملائم. غابت الشمس ونحن على التلة، حاولنا أن نتبين طريقا، فلم نفلح، وأدى ذلك لأن يقوم جمال بالإستنجاد بالشرطة.

رفضت أن أركب سيارات الشرطة، وتحاملت على نفسي، لأمشي مسافة تقرب الكيلو متر إلى الحافلة. راح الحاج إبراهيم يثني علي، ويصفني بالبطل، وأنا أود أن ينتهي هذا المسار بكل ما فيه. وأن أعود إلى البيت وأستريح. اقترب مني غسّان، وقال: حين تعود، لا تضع كمادات ساخنة، ولا تفركها بالزيت الساخن، هذه قدم، لا تعبث بها. ضع كمادات باردة، وأرحها قدر الإمكان.

قال الحاج إبراهيم: أعرف أن إصابتك ليست بسيطة، ولأنك بطل تحاملت على نفسك.

- لقد ثنيت تحتي.
- نعم، رأيت ذلك. الحمد لله أن العظم لم يكسر، وإلا ما استطعت أن تسير باقي المسافة. ربما اضطررنا أن نحملك حملا.
- الحمد لله، رغم أني كنت أراقب خطواتي جيّدا، وكنت أحمل عصا.
- العصا التي كنت تحملها، لم تساعدك، هذه "عصي شومر"، مثل "الخرفيش" كما يقولون، هي بحاجة لحمايتك، ولست أنت بحاجة لتحميك وتحملك.
- الحمد لله.
- لا مانع، لو راجعت طبيبا حين تعود، أو يوم غد إذا استطعت النوم الليلة.

صَمَتُ قليلا، ثم سألته: أظن أننا لن نستطيع زيارة بيت الحاج خليل الزرعيني، بل مؤكد ذلك، وأنا في وضعي هذا، والشرطة من حولنا، والارتباك قد حصل، أليس كذلك؟

- طبعا، لا يمكن. أعدك بأن يكون مسار الأسبوع القادم، لمدينة بيسان، نتجول فيها، ونسلك مسارا أقل صعوبة. هل ستتمكن من الالتحاق بنا؟
- ربما، فأنا متعب.
- وماذا عن طلب صديقتك القديمة بزيارة بيتهم؟
- لا أعرف، ربما في وقت آخر.
- اسمعني جيّدا. لن تستطيع المجيء لمسار الأسبوع القادم، ولا الشهر الذي بعده. أنت بحاجة لراحة طويلة. أعدك بأن أزور البيت، وأزودك بصوره، وما حوله.
- ألن أحقق هدف حنان يا حاج إبراهيم؟
- لن تحققه هذه السنة، وربما لن أراك قبل شهرين على الأقل.

أعرف يا حنان أنك تنتظرين أخبارا وصورا عن بيتكم. لم يحدث.
لو قلت لك ما حدث، لبنيت تصورا لما كنت سأفعله، لم أفعل شيئا بعد.
برنامج المسار الأسبوعي، لا أحدده أنا.

لا أستطيع أن أتبين المدينة وحدي، ولم يكن سهلا أن أتخذ قراري بأن أسيح فيها، وأتعرف على معالمها، مررت بها أكثر من مرة، لكني كنت في الحافلة، ولم أسر فيها على قدميّ. عرفت معالم أساسية منها، وحاولت التقاط صور لها. حتى تلك الصور كان مشوهة، مرتبكة، فسرعة الحافلة تقلل من وضوح الصورة، والزجاج المغبر، يزيدها ضبابية. تبدو فيها ظلال كثيرة، ولا أستطيع حينها التقاط ظلالك.

أشعر بالتيه بين أحيائها لو فعلت، فما سمعته من جمال وغيره غير كاف، وهؤلاء لا يعرفون التفاصيل كما أود. يكتفون بالقول إن هذه بيسان. نعم أرى كم هي جميلة! وسهولها مغرية للعين والقلب، لكني لم أطأ أرضها كما أود. عادة ما يلتقط أنفي رائحة التراب والعشب والشجر فيها، لكن الحافلة كانت مغلقة الأبواب والنوافذ. كان الشهر شباط، والجو غائم، والشمس تقف وراءها، فلم أر ظلالا.

من الصعب أن أسير وحدي في أزقتها، خاصة القديمة منها، فلقد تحولت إلى مدينة كبرى، وضاعت بين مبانيها الحديثة، تلك القديمة منها، ومنها بيتكم. لو سرت وحدي، ورأتني الشرطة، ستعرف أني غريب، كأني أناديهم ليتعرفوا إلي،

كاد المريب أن يقول خذوني، ولم أكن مريبا، بل باحثا عن بقايا ظلال. العمال العرب هناك يسيرون بطبيعية، وهم في العادة لا يعرفون المدينة جيّدا، بل يعرفون ورشات عملهم في البنايات، وفي المزارع. ويعرفون محطة الحافلات. هم يقومون بعملهم، ليحصلوا على رزقهم، ويعودوا إلى بيوتهم. لو عرفت واحدا منهم، لطلبت منه مساعدتي للتجول فيها، وهم أيضا يخشون على أنفسهم. من السهل التعرف على أمثالنا، لذلك أفضل أن أكون ضمن المجموعة. هل تعلمين يا حنان، بأن الفريق الذي أشاركه مساراته خبير بالجبال، والطبيعة كما كانت تقريبا. لا نتجول في الأسواق، ولا نشتري من بقالاتهم، نأخذ طعامنا من بيوتنا، ونرجع وقد نفد. حتى الماء نأخذه معنا، والقهوة تأتي في دلالها، وهناك أكثر من مشارك يتسابقون لصنع قهوة لذيذة، فلا نتعامل إلا مع أنفسنا. لا أبرر ذلك، فنحن لا نقع في شرك التطبيع بأي شكل. رفضنا أن ندخل عين جالوت، وهم يطلبون أن نشتري التذاكر. لم نفعل، ونتجنب أن نقع في هذا المأزق.

نتجول أحيانا على شاطئ البحر، سرناه من أقصاه إلى أقصاه، نستمتع بذلك، نخترق الصفوف بين المطاعم والمقاهي، لكننا لا نرتادها. نفضل المشي على الرمال، أو الأرصفة. يتنحون جانبا، حين يروننا، ويعجبون أننا نشكل فريقا، لنذرع أرجاءه، ونتعرف عليه من جديد. بعضهم لا يعجبه مسارنا، فيسمعوننا بعض العبارات المؤذية، قالت إحداهن حين قطعنا الشارع: ماذا تفعلون هنا؟ أتظنون أنها الجنة؟ قالتها بالعبرية، فلم يرد عليها أحد، وقالتها بالإنجليزية، فلم تلق ردا، فقالتها بعربية مكسرة، تعني شيئا آخر. فهمنا عليها بكل اللغات. نظر

بعضنا إلى عينيها، وكانت غاضبة، هززنا رؤوسنا. هم لا يعرفون ماذا تعني لنا، ولا أظن أنهم سيعرفون معنى التجول في بيسان والبحث عن بيتكم. تخيب ظنونهم، وهم يرجحون الجوانب الأمنية، فكل واحد منا مشتبه، وربما كان الأفضل لنا التجول في الجبال والأودية. اعتقدنا أننا بعيدون عن دائرة الشك، إلى أن وقعنا في المأزق، مأزق قمة التل، واتصال جمال بالشرطة لإنقاذنا، وبعد خروجنا، كانت إحدى التهم الموجهة لنا لها علاقة بأمن الدولة ورجالها.

أخبرني الحاج إبراهيم أن زيارة مدينتكم ستكون الأسبوع القادم، الخميس القادم، لكني منهك القوى، أعاني من ألم شديد في رجلي، اليمين منها. لن أرافقهم، ولا أعرف متى سأفعل ذلك. صداقتك باقية، وربما ظلالها.

فجأة، أيقنت أنها اللحظات الأخيرة في بيسان، أخرجت الكاميرا، وجهتها إلى النافذة، وشغلت تصوير الفيديو، لألتقط قدر ما يمكن من المدينة. لم يمكنني النهوض من مقعدي، لأستعرض المشهد بدقة. كان الضباب قد ازداد كثافة، والليل قد حلّ منذ ساعتين، فلا أرى ولا ترى الكاميرا غير الشوارع المضاءة، والبنايات من حولها. ظهرت أضواء مغشيا عليها، ضوء منفلش متشتت، ولا يظهر من المدينة شيء واضح. ظهرت الشوارع المضاءة، والبنايات الحديثة، والفلل، وحدائق أمامها. أنا لا أتحدث عن بيسان القديمة، بلدة حنان، فالقديمة منها عادت شمالا، ابتعدنا عنها، ولم نمر بها أصلا. رأيت طرقا، وعمارات، وإشارات ضوئية، ودائري. نخرج من واحد، فنستقبل آخر، ونحن نتجه جنوباً لنصل إلى طريق الغور، طريق رقم 90.

التقطت صورا حية لبيسان، ما تمكنت الكاميرا من التقاطه، وكان قليلا، فهي تشير بلون أحمر أن الشحن قارب على الانتهاء، وسرعان ما انتهى.

جمعت ما التقطته على الهاتف، وأرسلته إلى حنان مباشرة، قائلاً: هذا ما استطعت أن أفعله.

أجابت: لم أجد بيسان في الفيدو.

## زرعين

أقف على رأس التلة، العتمة تلفنا من كل جانب، أضواء مدينة بيسان لا تبعد عنا أكثر من مئات الأمتار، ولا نستطيع الوصول، لا نستطيع اجتياز أقل من مئتي متر لننجو. لا نسمع أية أصوات مطلقا. كنا وحدنا، منهكي القوى، والبرد يتسلل إلى أجسادنا.

لم يقل أي منا كلمة واحدة، صامتين، عاجزين، فاقدي الأمل بالنجاة. ألتفت نحو الغرب، فألحظ بعض الضوء، حيث بدأنا، ولا أرى مزرعة المراوح الهوائية، حيث انطلقنا. ألتفت شمالا وجنوبا، فلا أرىَ شيئا، سوى قمم تلال مشابهة لهذه التي نقف فوقها، برقان وأبو مدور، والمزار، والقليلة، والشيخ عجمي، وأم غنمة، وأم الدرج، أما شرقا، فهناك قرى الأردن وأغوارها. الصمت يلفنا، وقوانا خائرة.

الظلام يطوقنا، فلا نرى وجوه من حولنا، نسمع همهمات، وزفيرا وشهيقا. زفير أربعتنا تتتابع وتتقاطع، تعكس خوفا وترقبا وشعورا بالعجز. انقطع الحديث، لوى كل منا نفسه على نفسه، ذاب في ذاته، التصق بعضه ببعضه، البرد يأتينا من كل جانب، العضلات تتحسس تلك المجاورة لها، تطمئن عليها، وتتأكد أننا لم

نفقد بعد أي منها. نقف على شكل يشبه المربع، نتباعد ونتقارب دون هدف، يقف جمال في مقدمته، على الحافة القريبة من التلة، وأنا أقف في الجهة المقابلة، الغربية منها، ويشكل أبو نهاد، وأبو ماهر رؤوس هذا الشكل الرباعي.

المسافة بيينا لا تزيد عن الأمتار الستة، لا حركة لها معنى على الإطلاق، لا حس ولا نس، ولا شيء. العشب الأخضر يحوّط أقدامنا، ونخشى الزحلقة لو تحركنا، ونفقد السيطرة، أن نقع مثلا على صخرة هنا، أو حجر، فتتكسر عظامنا، أو جماجمنا، ونموت هنا، دون أن يدري بنا أحد، نموت ونحن نرى بعض أضواء عربات تسير في طرقات بيسان، تلك البيسان القريبة البعيدة، هي أمامنا مباشرة، تحتنا مباشرة، نطل عليها، ولا نصلها، ولا تصلنا. يا الله، ما العمل؟

قطع هذا الصمت جمال قائلا: لا تسكنوا، سنموت، تحركوا، اقفزوا في الهواء، حافظوا على درجة حرارة أجسادكم، اقفزوا، حركوا أجسادكم، لوحوا بأيديكم في الهواء. وفعلنا، لأننا نود الحياة، ولأنه قال بصراحة ووضوح لا لبس فيه: لا بد أن يكون أحدنا قائدا، وأنا القائد. يجب أن تلتزموا بما أقول، يجب أن لا تعصوا لي أمرا.

لم نرد طلبه، ولم نقبله. قفزت في الهواء قليلا، فشعرت ببعض الدفء، وبكثير من الإعياء، الإعياء الجسدي بعد نهار كامل من ركوب الحافلة والتجول، والإعياء النفسي للوضع الذي نحن فيه، فعدت لحالة السكون، لاسترق نظرة على الحياة التي أراها أمامي، أسفل مني في شوارع المدينة.

لم يتوقع أي منا أن يحدث هذا. لم أتوقع أن أقع في هذا المأزق، لكننا وقعنا. أربعتنا وقعنا فيه، والفريق ككل وقع فيه. نقف على رأس تلة، ولا نستطيع اجتيازها. نقف على حافة التلة، ولا نجد مخرجا للنزول، واللحاق بالرفاق. اتصل بي غسّان مطمئنا: أنا وصلت نهاية المسار، وها أنا عند الحافلة منذ ساعة. أين أنتم؟ ماذا أقول له؟ هل أشرح له بالتفصيل ما نحن فيه! الوقت ليس مناسبا، للتعبير عن حالنا، فقلت باختصار: ما زلنا هنا، نحاول أن نصلكم.

كنا فريقاً واحداً، ركبنا الحافلة معاً، بدأنا المسار معاً، وغنينا، ورقصنا، لكن طول المسار فرقنا، جعل منا كتلاً متباعدة، لا نقوى على التواصل والاتصال. امتد الفريق على طول كيلومتر، يزيد أو يقل أحياناً، تجمعنا الأحاديث والاهتمامات، أحاديث العمل والانشغال في الحياة، واهتمامات البحث عن نبتة ما، أو التمعن في جمال الطبيعة وأصلها وفصلها. تجمعنا أحاديث السياسة والمجتمع، والعادات والتقاليد، واهتماماتنا بتعليم أبنائنا في المعاهد والجامعات. تجمعنا صداقات قديمة، أو أصدقاء مشتركين، واهتمامات بمشاريع بحثية وعمل. وهناك من يجمعه مع الفريق روح الفريق والمسار المشترك، فأجد زميلاً ضمن مجموعة، ثم ينفصل وحده بين مجموعتين، سعيداً بما يرى، مصاباً بغصة المنظر وجماله.

لم يكن خياري أن أكون ضمن هذه المجموعة المصغرة، كما غيري، وجدت نفسي هنا، وعلي تحمل المصاعب، كما فرضت علينا.

ابتعد جمال قليلا عنا، أمسك هاتفه، انشغل به، كأنه يبحث عن رقم أحدهم، ظننته سيتصل بالحاج إبراهيم، لكني سمعته يتحدث بعبرية مكسرة، بتأتأة واضحة، وإن كنت لا أتقن اللغة تلك. أحس بذلك من خلال إعادة بعض الكلمات، أو استبدالها بالعربية، أيقنت حينها أنه يتصل بالشرطة طالبا النجدة. قال، وقال، وقال، ولهجته المختلطة بالعربية المقدسية الخليلية، يمد الأحرف، يمطها مطا، ويحاول أن يحدد الموقع الذي نحن فيه.

أغلق الهاتف، وترجم لنا ما قاله بالعبرية، وأخبرنا أيضا بأنه ممنوع علينا أن نترك المكان، فنحن الآن تحت مراقبة الشرطة، وأخبرهم بأننا أربعة فوق الستين من العمر، وأننا بحاجة لإنقاذ وماء وحرامات تقينا البرد. قطع الحديث معنا، فالشرطة تتصل به، وتطلب منه أن يرسل لهم رسالة على الواتس، ليحددوا مكاننا بدقة، ففعل.

لحظات، فإذا بضوء سيارة الشرطة تتجول في المدينة. سألهم إن كانت هذه السيارة هي التي تبحث عنا، أجابوه: نعم. فطلب منا أن نشعل أضواء هواتفنا، ونرفعها عاليا، ليرونا مباشرة، ففعل ذلك وحده.

أغلق الهاتف، وأخبرنا بأنهم سينقذوننا حالا. ربما سيأتون بطائرة مروحية، تأتي على رأس التلة، وتأخذنا إلى مكان أكثر أمنا، حيث الطرقات المضيئة التي نراها.

خارت قواي، وقلت له: أنا لا أحمل الهوية الإسرائيلية، هويتي ضفاوية، فكيف سيعاملوننا؟ وسمعت أبو ماهر يقول: أنا زائر من الأردن، سيبعدونني فورا. قال: ليس مهما، سيأتون بمروحية حالا، المهم عندهم الإنسان، بغض النظر عن أصله وفصله ودينه ومعبوده.

سأل أبو نهاد: كيف ستهبط المروحية على هذا التلة، لا مكان لها؟

قال جمال: هم يعرفون عملهم، ربما سيلقون بحبال، أو سلال تحملنا، واحدا وراء آخر.

قلت: لن أركب المروحية، سأحاول النزول وحدي.

قال: ممنوع مخالفة أوامري، أمري من أمر الشرطة، أمري من أمر الدولة، ممنوع التحرك من هنا إلى أي مكان.

قال أبو ماهر: ألا نحاول مرة أخرى لإنقاذ أنفسنا؟

قال: لا. لن نستطيع، وما علينا سوى طلب المعونة.

ما هذا الذي يقوله!

أشار أبو نهاد غربا، وقال: ربما هذه طائرة مروحية. إنها تلك التي تضيء بالأحمر، تضيء بشكل متقطع.

حدقنا في الغرب، استغرق منا عدة دقائق، قبل أن نكتشف أنه ضوء منارة مزرعة المراوح حيث كنا. زال توتر أصابني، وأصاب أبو ماهر.

لا أعرف كم مر من الوقت، قبل أن يظهر في الوادي قائد الفريق، الحاج إبراهيم. نادى على جمال، واستفسر عن عددنا. لم نكن نراه جيّدا، ولا يرانا، هو يسمعنا ونحس بوجوده، وهو يحس بنا وبوجودنا. أشار لمكان وجوده، بضوء هاتفه. طلب منا أن نحاول النزول. فلم يجبه جمال، ولم نفعل انقيادا للقائد الجديد، فنادى مرة ثانية وثالثة أن ننزل، وهو في انتظارنا، فأجابه جمال: نحن بانتظار نجدة الشرطة.

- أية شرطة يا أخ جمال؟
- أخبرناها.
- لن تفعل لك الشرطة أكثر مما سنفعله نحن.
- أمرتنا الشرطة أن لا نتحرك من أماكننا.
- كل أعضاء الفريق قطعوا الطريق، وسنساعدكم، لاجتياز الأمتار الباقية.
- لن نتحرك من أماكننا.
- الشرطة ستضعنا في سين وجيم، دون فائدة.
- هذا أمر الشرطة.

وهمس: سيكون هذا اليوم نهاية هذا الفريق الذي يعمل دون ترخيص، ودون قائد حقيقي.

وأضاف: يظن هذا "الحاج إبراهيم" أنه قائد فريق. انتهى الحاج إبراهيم، انتهى الفريق، هذا "الحاج إبراهيم" لم يكشف المسار جيّدا، أتحداه إن كان قد فعل، كشف نصف الطريق، وترك الباقي لتخمينه، على التساهيل.

- يا أخي يا جمال، لم يبق في شاحن الهاتف الكثير، دعنا ننزل معا، نحن فريق يا جمال.
- نحن ضعنا يا حاج إبراهيم، سبقتمونا، ونحن بهذا الحمل الثقيل، نحن وحدنا.
- يا أخي يا جمال، لم نتركم، كنا نساعد كبار السن، لاجتياز هذه المرحلة الصعبة، وها نحن قد عدنا إليكم.
- لا نستطيع، إلا بأمر الشرطة.
- سأطلب من زميلنا "السلامين" أن يساعدكم، لتنزلوا عندنا، ونمشي معا.
- لا فائدة.

مرت دقائق قليلة، فإذا بالسلامين عندنا، طلب أن نمشي وراءه، فصرخ به جمال أن يبتعد.

قال: جئت لمساعدتكم. وحاول إمساك يد أبو نهاد، فهجم جمال عليه، وأمسكه من يده، وكادا يشتبكان.

- اترك يدي.
- ابتعد.
- أنا من دار السلامين، ابتعد.

- عد أنت عند زعيمك.

لم يتحدث أي منا، وقعت في ارتباك، هل أعود مع السلامين؟ هل أترك الفريق المصغر الذي أصبحت جزءا منه؟ هل أترك هذه الجماعة المصغرة، وهي في مشكلة، وأنسحب منها؟ هل أنا جزء من المشكلة؟ هل ساهمت بوقوعها؟ هل اختار النجاة الفردية وأنضم لقائد الفريق؟ اعتقدت بأن ذلك جبن مني في الخيارين، أن أنسحب من المجموعة المصغرة، أو أن أبقى معهم ولا أرتضي قرار القائد، لو قبل أبو نهاد النزول لنزلت معه، فهو بحاجة لمساعدة اثنين على الأقل، وأبو ماهر مشتت الفكر والجسد. لم أتحدث، نويت أن أظل صامتا، لأرى كيف ستؤول الأمور، وفي هذا جبن أيضا. استعرضت دوري القيادي في المجتمع. سألت نفسي: هل أنا عاجز لهذا الحد، ولا أستطيع مواجهة جمال؟ هل أصرخ فيه، وأبين له من أكون؟ هل أرتضيه قائدا وقد نصّب نفسه بنفسه؟

صرخت: جمال، يا أخ جمال: ماذا سنفعل؟

- لم أعد مقررا، الشرطة هي صاحبة القرار، وأنا بانتظار تعليماتها.
- الحاج إبراهيم ينتظرنا على بعد أمتار.
- انتهى الحاج إبراهيم. الحاج إبراهيم تركنا وراءه. أما زلت تعتبره قائدا؟ لم يعد كذلك.
- وهل الشرطة هي قيادتنا؟
- الشرطة ستنقذنا، هذه هي القوانين، قوانين الدولة.

- لكنها ليست دولتنا، ولا الشرطة شرطتنا، هؤلاء هم الذين يعتقلوننا، ويسيطرون على أرضنا.
- لو كنا في مكان آخر، تحت سيطرة شرطة أخرى، لطلبناها. هذا هو الواقع الذي يجب أن نعترف به.
- أنا لست كذلك، لا بد من طرق أخرى للتفكير.
- أنا القائد هنا. أنا الذي كان يوكلني الحاج إبراهيم بقيادة الفريق، أنا كنت المتحدث الرسمي باسم الفريق، في الحافلة، وفي المواقع الأخرى. ألا تذكر ذلك؟
- أذكر، لكنك لست الوحيد من مساعدي الحاج إبراهيم، فهم كثر، وهم هناك بأمره.
- لكني كنت مساعدا فاعلا.
- صحيح، لكن الموقف هنا يختلف. أنت لست قائدا بوجود الحاج إبراهيم.
- أنا القائد الميداني في هذا الميدان بالذات، الشرطة ستحاسبني بعد أن أبلغتهم بأمرنا، نحن تحت رقابتهم.

اخترت أن أبقى مع الجماعة، وعيني على الفريق.

مر زمن طويل، تخيلناه طويلا، وجمال يمسك الهاتف، ويحدد للشرطة موقعنا، ونحن نقف بلا حراك. شل تفكيرنا، فالاتصال بالشرطة، يعني أن تتولى هي قيادتنا. حتى جمال لم يعد صاحب قرار، صار وسيطا بيننا وبينها. لم يعد الحاج إبراهيم قائدا حسب جمال، فالشرطة تولت الأمور، وسيتم محاسبة الذي يخرج عن قرارها.

ما الذي يحدث؟ يمكنني أن أنام الليلة هنا رغم البرد القارس. بت أبحث عن صخرة كبيرة، تشكل لي مأوى، إنها بضع ساعات، بضع ساعات؟ الساعة الآن السادسة مساء، وحتى أقضي الليلة هنا، أحتاج اثنتي عشرة ساعة، إنها ساعات طوال. كيف سأقضيها هنا؟ لا يمكن. ما الحل؟ لا أعرف، ولا أعرف ما سيتفق عليه جمال والحاج إبراهيم.

يبدو أن الحاج إبراهيم يئس من استدراج جمال لينزل، وقد أرسل مبعوثا له يساعدنا. اخترنا أن نبقى على رأس التلة، في البرد، والبرد يزداد شدة، والرياح تزداد سرعة. ما زلت أشعر ببعض الدفء، أستطيع أن أمشي رغم الألم في رجلي، أستطيع أن أفكر، وأتخذ قرارا. لا، لم أستطع. لماذا لم أرافق السلامين؟ لماذا لم نتمرد على قرار جمال؟ هكذا، لأننا لم نشأ أن نمزق المجموعة، وإن كان القرار خاطئا. لم نتمرد عليه، وأصبنا بالعجز، باللافعل، باللاتفكير، سوى هذه الأفكار المتناقضة، والتحسب لما هو آت.

يبدو أن الحاج إبراهيم يئس من استدراج جمال، وجمال مشغول بالهاتف يحدد للشرطة موقعنا، وكلما نادى علينا الحاج إبراهيم ليتأكد أننا ما زلنا بخير، أجاب جمال: أنا أتحدث مع الشرطة. فإذا بالحاج إبراهيم يقول: إننا في وادي عين الضبعة، عين موداع. لأول مرة أرى الحاج إبراهيم متهاونا، متجاوبا مع أحد أفراد الفريق وهو يرفض طلبه. عرفته قبل ذلك حازما، صاحب قرار، ينفذ ما يراه بناء على معرفته السابقة، فهو بطل الأردن وفلسطين في المصارعة في الستينيات والسبعينيات. رأيت الوجه الآخر للحاج إبراهيم، وأنا أعرف أنه يفكر بشكل مختلف الآن استجابة لجمال، ليظل محافظا على الفريق، وليظل هو القائد. هو القائد حتى في استجابته لجمال، بل يتصرف هكذا لأنه القائد. لم يستطع تقسيم الجماعة، وإن كان عددها أربعة، لم يشأ ذلك. هو لا يبتعد عنا أكثر من عشرين مترا، لكنها الأمتار القاتلة، المسافة الصعبة.

توقف جمال عن استخدام هاتفه فجأة، وقال: الشرطة تطلب منا أن ننزل عن التلة بمعرفتنا.

عرف الحاج إبراهيم بقرار الشرطة، فأرسل السلامين مرة أخرى، دقائق فإذا هو بجانبنا، قال: إذا استطعت أنا أن أصعد، وأنزل، وأصعد، فإنكم تستطيعون ذلك. أمسك بأكبرنا سنا، أبو نهاد، وأمسكنا نحن به من الجهة المقابلة، ونحن نراقب خطواتنا، خطوة وراء أخرى، نضع أقدامنا اليمنى في المكان نفسه الذي اختاره السلامين، ونتبعها باليسرى.

وجدنا صخرة في الطريق، تلك الصخرة التي مررنا بها ونحن نصعد التلة، التي استرحنا عندها قبل أن نقع في المأزق. طلب أبو نهاد أن نستريح قليلا، وطلب أن يشرب الماء، وطلب أن نتيح له فرصة للتبول، وفعلنا مثله. استأنفنا المسير حول الصخرة، نشدها من أسفل، وتشدنا من أعلى، اجتزناها، ووجدنا في الطريق شجيرة "نتش" بقطر حوالي المتر. أمسكنا بأغصانها، وزحلقنا أقدامنا. انقطعت بعض الأغصان، فتمسكنا بأخرى حتى اجتزناها. مررنا بصخور لزجة، فتزحلق السلامين، ثم ثبت قدميه عند طرف أخرى أسفل منها. طلب منا أن نزحف رويدا رويدا على إلياتنا. انتظرنا هناك، وأمسك بنا واحدا واحدا.

حاول جمال، أن يقود المجموعة بمقترحاته، خاصة عندما طلب من أبو نهاد، أن يتبعه. تدخل السلامين، وطلب منه، أن يسير خلفه، فنحن على وشك الوصول إلى الوادي. عرف جمال مقصد السلامين، فسكت على مضض.

خطوة خطوة، نتزحلق قليلا، فنمسك بأيدي الذين حولنا، كنا عشر أياد متشابكة، وكلما أوشك أحد منا على الوقوع، شدته الأيادي الأخرى. خطوة خطوة، حتى وصلنا قاع الوادي. وصلنا الحاج إبراهيم.

كيف استطاع السلامين الوصول إلينا؟ لماذا لم نفعل مثله؟ صعد المكان مرتين، ونزل. كان يمشي كأنه يعرف المكان جيّدا، يحفظه، رغم العتمة، والضوء الباهت من الهاتف.

كان الأمر بسيطا، ولا نراه، لم نفكر به أبدا. كنا لا نرى سوى الانحدارات الصعبة من كل جانب. كنا نرى ما ينتظرنا في الأمام، لو كان بإمكاننا النزول، لنزلنا. كنا نرى على الجانبين، يمينا وشمالا، منحدرات صخرية، ستهوي بنا إلى أسفل التل إن بقينا أحياء أو أمواتا. جربنا المنحدر المطل على الوادي، أمسكت أبو نهاد من جهة، وأمسك جمال من الجهة الأخرى. كنا نخطو قدما قدما، يزيل جمال قدما، ويحتلها أبو نهاد ثم أنا. كان أبو نهاد منهكا، يرتكز على أكتافنا، ليس به قوة، لا يستطيع بذل أي جهد، وهو يسلم هذا الجسد لنا لنحمله. كان ثقيلا، ومتعبا، ويطلب منا أن نستريح قليلا، فنفعل. نظرت إلى النقطة التي بدأنا منها، فإذا هي لا تزيد عن العشرة أمتار. صرنا على منحدر صخرة لا نعرف نهايتها. طلب منا جمال أن ننتظر ليكتشف الأمتار القادمة. كابر على نفسه، وقال: تستطيعون الوصول عندي. أبو ماهر يمسك بي، دون كلام، دون مبادرة، دون قدرة على رؤية حتى النقطة التي بدأنا منها. جمال يستعجلنا أن نخطو نحوه.

- وبعدها يا جمال؟ أين سنذهب؟ كيف سننزل إلى الوادي؟ خطوة خاطئة، ونكون في الهاوية.

وقف جمال، وألقى نظرة، دقق في كلامي، ثم سأل: وما العمل؟

قلت: نعود إلى أعلى التلة، ونبحث عن طريق أخرى. وعدنا.

كان الأمر بسيطا، كان يكفي أن نعود إلى الوراء بضع خطوات، أن نسلك الطريق التي مشيناها حيث وصلنا، وننحدر رويدا رويدا، فنكون في قاع الواد، ونعود إلى المجموعة الكبيرة. لماذا لم نفكر هكذا؟

الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله. ها قد صرنا ثانية بجانب الحاج إبراهيم، يهنئنا بسلامتنا، ويطلب منا أن نتبعه واحدا واحدا. أمسك بيد أبو نهاد، وخطوة خطوة يحرك فيها قدمه اليمني، ثم اليسرى: انتبه، أمسك بي، حافظ على توازنك لئلا تقع، تقدم قليلا، ارتكز بيدك اليسرى على الصخرة، أنقلها إلى الشجرة، الآن القدم اليمين، تقدم إلى السلّم، انتبه إلى بركة الماء، ستجتازها، نعم، تقدم خطوة أخرى.

اجتاز أبو نهاد بضعة أمتار، وأعاد الخطوات نفسها مع أبو ماهر، ثم معي. صرخ بي: لا تنقل قدمك قبل أن أخبرك، خطوات بسيطة، وسنجتاز هذا الجزء الصخري. فعلت مثلما أمر، فأنا الآن بأيد أمينة.

وصلنا منحدرا صخريا، فيه سلّم حديدي مثبت فيه. السلّم ليس مستقيما، ويحتاج أن تحرك جسدك يمينا وشمالا لتجتازه. يسبقنا الحاج إبراهيم خطوة واحدة، ويطلب من كل منا نقل قدميه، والتشبث بحلقة السلّم العلوية. المنحدر هو أمتار ثلاثة، قابل للزحلقة، ولو أخطأ أي منا في التقدير، لتدحرج، ووقع، وربما انكسرت عظامه. ربما استمر اجتياز هذا المنحدر عشر دقائق. طلب منا الحاج إبراهيم أن نستريح قليلا، وأن نتهيأ لمثل هذا عدة مرات قادمة.

نزحف أحيانا على بطوننا، وأخرى على ظهورنا، ومرات على جنوبنا، خطوة خطوة، ببطء شديد، يضيء هاتفه، ليرينا مواقع أقدامنا القادمة، يساعده السلامين، في الخطوات الأقل خطرا. نعود ونمشي في الوادي قليلا، لنواجه منحدرا آخر.

بدأنا نرى أضواء الشرطة، ونسمع أصواتهم، وهم يشيرون إلينا أن نتقدم، وتقدمنا. تقدم شرطي منا، يحمل سلاحه، ويحيط به رجال آخرون، يبدو أنهم لا يثقون بنا تماما، ربما ظنوا أننا ننصب لهم كمينا. تقدم الشرطي، وظل آخرون يحملون أسلحتهم، ويسلطون الأضواء علينا. تأكدوا بأن هذه هي دفعتنا الضائعة، لكنهم أضاءوا المنطقة من حولنا، يميننا ويسارنا، حتى أعلى التلة، وباتوا على ثقة بأن ليس هناك غيرنا.

أمسك شرطي بأبو نهاد، أكبرنا سنا، وأكثرنا إعياء، وأقلنا حيلة، وأضاء الطريق أمامه، وبات يأمره بنقل خطواته اليسرى ثم اليمنى. أنشغل الشرطي بأبو نهاد، فجأة فإذا بالشرطي يتزحلق، ويتكوم فوق سلاحه. قام، وأعاد الإمساك به، وطلب قائده أن نتبعه.

كان الحاج إبراهيم والسلامين، هما الفريق المساند لنا، نتبع الشرطي، وننقل خطواتنا، نسير في الوادي مرة، وعلى جانبه مرة أخرى. نتزحلق قليلا، ثم ننهض، نغرق في بركة ماء، ونبتل، ثم ننهض، ونكمل الطريق.

أعتقدت أننا على وشك الوصول، لكن الطريق كانت طويلة، أطول مما اعتقدت، والأرض رطبة، فأجد نفسي وقد تزحلقت، وأوشكت على فقدان توازني. لم تكن المسافة المتبقية سهلة، ولم نكن بكامل حيويتنا.

أصر الشرطي أن يمسك يدي، حاولت أن أوحي له بأنني أستطيع السير وحدي، كان يتحدث العربية، بل كان عربيا بدويا كما يبدو. شعرت أن إمساكه بيدي، وإصراره على ذلك أشبه بتبني خروجنا من المأزق، ولم أشأ أن يبدو كذلك. تمصلت منه أكثر من مرة، كانت يده قوية، وساعده أقوى، ولم أستطع الإفلات من يده في معظم الأحيان، فإذا ما تركت يدي، أمسك بمرفقي، وبساعدي، وبكتفي. تفهمت إمساكه بي، ولم أشأ أن يفعل ذلك. لو كان يلبس لباسا مدنيا ربما اختلف الأمر قليلا، لو سار أمامي أو خلفي، ربما تغيرت ردود فعلي، لكني وجدته مصرا على ذلك، مثله مثل الاعتقال. أنا لست طفلا، وهو لا يعرفني، لكني أعرفه من ثيابه، ثياب الشرطة أو ثياب الجيش، هذه الثياب التي تجوب شوارع مدننا وقرانا، وتعتقل يمينا وشمالا، ونفسها التي تطلق النار على الناس، وتقتحم البيوت بعد منتصف الليل. شعرت أنني معتقل.

سار بي على جانب الوادي، وما زالت بيننا وبين الخروج تماما من عنق التلال مسافة، ربما كانت تزيد على المائة خطوة. مشينا في الوحل هذه المرة، ولم أعد مهتما بتوحل ملابسي، كابرت على نفسي، وعلى رجلي اليمين التي تؤلمني، وأشعرته بأنني على ما يرام.

حاول فتح حديث معي، ولم أشأ أن أجيبه. سألني عن عمري، وأستغرب أن أكون فوق توقعاته، اقترب مني كتفا لكتف، وحاولت الابتعاد. تزحلقنا في أكثر من مرة،

ووجدت أنني أكثر قدرة منه على التعامل مع الطبيعة. أمسك بصخرة مرة، وبطرف نبتة مرة أخرى، وهو يصر على الاقتراب كلما ابتعدت.

سألني: من هو مسؤول الفريق؟

- ليس هناك مسؤول، نحن جماعة جئنا رحلة.
- من الذي جاء بكم؟
- جئنا معا.
- من هو صاحب الدعوة للمجيء؟
- كان الإعلان على الإنترنت، وجئت.
- هل تتذاكى علي؟
- هل تتذاكى علي!

ربما سرنا مائة متر أو أكثر، فالأرض الرطبة، والصخور الملساء جعلت التقدير أكثر من الحقيقة، ربما.

تجمع أربعتنا بعد أن تفرقنا عدة أمتار، والحاج إبراهيم والسلامين ورجال شرطة، وحينها، أعلن الحاج إبراهيم بأننا سالمون، فبدأ بالغناء والرقص: جينا وجينا وجينا، جبنا العريس وجينا.

وردد بعض رجال الشرطة الغناء وراءه، ثم غنوا باللهجة البدوية:

من يوم ربي خلقني، وأنا عمود الدحية

لكون بداع الدحاحي، وبكون صلاح الحلية

يسق الله وعندي مهرة، لأركب وأمدد رجلي

حراج على كل البديعة، من راهط لاسكندرية

أها، إذن هذا الشرطي من راهط، وهو بدوي. لماذا يعمل شرطيا؟ هل له عمل آخر؟ أسئلته لم تدل على نقائه، هل اختاروا شرطة عرب معهم ليتواصلوا معنا؟ أشعر بالدوار. كان العريس الذي يزفونه، هو أبو نهاد، ابن قرية عمواس المدمرة. صحا على نفسه، وزادت قوته، بحيث غنى معهم ثم رقص ونحن على عتبات الخروج.

خرجنا، فإذا بسيارات شرطة أربع، تنتظرنا، لتنقلنا إلى مكان أكثر أمانا.

طلب رجال الشرطة أن نركبها، إذ أحضروها بعددنا، كي تنقل كل عربة واحدا منا. طلب الحاج إبراهيم مني أن أركب واحدة، أو أن أرافق آخر. أجبته أن لا.

- رجلك تؤلمك.
- احتمل ذلك.
- هناك مسافة كيلو متر نمشيها، هل تستطيع؟
- نعم. لن أركب سيارة شرطة، سأرافقكم حتى نصل إلى الحافلة. أتريدني أن أركب سيارة شرطة؟
- كل الاحترام لك.

المسافة بين مخرج الوادي والحافلة كلها طين، طريق زراعي، في منتصفه حفر ومطبات، وماء، وعلى طرفه أعشاب.

أية حركة خطأ، ستزحلقني، وربما أجد نفسي غارقا في مستنقع الطين والماء، أو ربما أجد نفسي، وقد تمزقت أوتار رجلي مرة أخرى، أو أصبت ببعض الكسور.

كان المشي صعبا، لكنه كان لذيذا، وأنا أخبر هذه المنطقة في أسوأ وضعها. غرق حذائي الرياضي بالطين، وامتد إلى الجرابين، وأطراف البنطال. لم يهمني، كنت مصرا أن أصل الحافلة، وليكن بعدها ما يكون. تزحلقت قليلا هناك وهناك، وحاول بعض الشباب، وقائد الفريق مساعدتي أو مساعدة غيري. شعرت بالنشوة وأنا أساعد غيري رغم الألم، ورغم الكابوس الذي لم أخرج منه بعد. كابوس الضياع، وكابوس التواء رجلي تحتي، وكابوس الشرطة التي أتت لمساعدتنا.

كنت انتقل من طرف الشارع إلى طرفه، وأسير على العشب مرة، أبحث عن أكثر المسالك أمانا. كنت أظن أن المسافة أقرب من ذلك، لكنها كانت صعبة عنيدة.

اجتازتنا سيارات الشرطة، أتحنا لها الطريق لتسير. دعها تسبقنا، وفعلت.

الحافلة على بعد أمتار منا، وسيارات الشرطة، تقف حول الحافلة، كما لو كانت تحاصرها.

حول الحافلة رجال جيش كثيرون، ورجال شرطة، استفردوا بأكثر من واحد، ليسألوه عن قائد الفريق، ولم يتلقوا جوابا مقنعا. كان الجواب: تداعينا، وجئنا في رحلة. وجهوا السؤال لغسّان: أنت القائد.

أجاب: لا، أنا صغير على مثل هذه المهمة، جئت كغيري.

- إذن من هو القائد؟
- لا يوجد قائد، كلنا مثل بعضنا.
- من الذي دعاكم للرحلة؟
- لا يوجد داع. نحن أصدقاء، واتفقنا أن نسلك هذا المسار.

وقف واحد منهم، وقف على صخرة، وقال بلهجة مختلطة: أنا كنت محققا في المسكوبية، تعرفون المسكوبية جيّدا، مركز التحقيق، وأنا مطلوب مني أن أعرف قائدكم. أستطيع الآن أن أعتقلكم كلكم مرة واحدة، وأن آخذكم هناك وستعترفون.

لا جواب. سأل أبو نهاد، أكبرنا سنا: من الذي أخبرك بالرحلة؟

قال: نحن أصدقاء، نلتقي في المقاهي، وفي صالات الرياضة، والصلاة، والمناسبات الاجتماعية، تداعينا، وجئنا إلى هذه المنطقة.

قال: أنتم خالفتم القوانين، والتهم الموجهة إليكم أربعة: ليس هناك قائد للفريق، ولا تملكون رخصة للمسارات، وانطلقتم من مزرعة المرواح بعد الساعة الرابعة، وعرضتم أجهزة الأمن للخطر.

تقدم الحاج إبراهيم، وقال: لأننا لسنا بفريق، ولا يوجد قائد، سلكنا الطريق، وتأخر البعض، مما استدعى إخباركم.

- إذن أين قائد الفريق؟
- كلنا قادة، وكلنا شعب. تعجّل واحد منا فاستدعاكم، وكان يمكننا مساعدة الذين تأخروا دون أن تأتوا.

صمت المحقق قليلا، تأمل في بعض الوجوه، نظرة متفحص، نظرة محقق، نظرة متشكك، ثم انطلق بسيارته بعيدا.

اقترب مني جمال، قائلا: الحاج إبراهيم يحملني المسؤولية، بدل أن يحملها هو.
كان جمال ذليلا هذه المرة، راجيا أن أساعده.
اقترب مني الحاج إبراهيم، قائلا: لن يكون جمال عضوا في الفريق، ما رأيك؟

- أنت الذي تقرر.
- هذا طعنني في ظهري، خان الفريق، أراد أن يدخلني السجن.
- أنت الذي تقرر.
- وأنت؟
- أنا مجرد ضيف.

في الحافلة، أمسك جمال المايكروفون، كعادته، حاول أن يتعامل مع الوضع، كما لو أن شيئا لم يكن، وحاول أن يضع قواعد في حل الأزمات. الحاج إبراهيم صامت دون كلام، وأرى الغليان في صدره.
طلب مني جمال، أن ألقي مداخلة قصيرة حول حل الأزمات وفنها.
أصبت بالإحراج، هل أذهب أم لا؟ وأنا لست خبيرا بالأزمات وحلها. أخيرا جررت جسدي المنهك، حتى وصلت أول الحافلة، وأمسكت بالمايكروفون، قائلا: أتشرف بأن أكون أحد أعضاء الفريق، وأحمد الله على سلامتنا جميعا.
حينها، وأنا عائد إلى مقعدي في الحافلة، وقف الحاج إبراهيم قائلا: أنت بطل، اجتزت المصاعب، واحتملت التواء رجلك.

ابتسمت رغم الألم، ولم أشأ أن أرى غير الطريق الذي سيستغرقنا ثلاث ساعات على الأقل قبل الوصول إلى البيت.

أمسك الحاج إبراهيم بيدي، وسأل: أما زلت تود أن تزور بيسان؟

- طبعاً.
- حين تكون جاهزاً سنذهب معا.